

جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

صلى الله عليه وسلم

شعر غزوات النبي (دراسة تحليلية)

كـه الدكتور

محمد بن هادي المباركي

الأستاذ بقسم الأدب والبلاغة في كلية اللغة العربية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

العدد التاسع عشر

للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠ / ٢٠١٥م

التقييم الدولي ISSN 2356-9050

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمّا بعد: فإنّ الشعر في ظلال الإسلام قد أدّى دوراً لا يُنكر في مسيرة الدّعوة الإسلاميّة حين واكب الغزوات والفتوحات، وناجح الشعراء عن حياض الدّعوة بكلّ ما أوتوا من فصاحة وبيان، وبما استقرّ في نفوسهم من أضواء اليقين، وإشراقات الإيمان.

وكانت مواقف المصطفى ﷺ من شعراء الإسلام قد دفعت بهم إلى شحذ ملكاتهم وصقل مواهبهم، والوقوف في وجه أعداء الإسلام بالكلمة المؤمّنة المشحونة بكل طاقات الانفعال الإيمانيّة التي تنزل الجبال وتهزّ الرّواسي.

ولقد كانت غزوات النبيّ ﷺ ميداناً خصباً سار في ركابه كثير من الشعراء، وأبانوا عن مناصرتهم لدين الله تعالى، والتّصدّي للمشركين الذين ما فتئوا يتعرّضون للمسلمين. حيث كان للشعر - آنذاك - دوره في مختلف المواقع والغزوات التي خاضها المسلمون من أجل الدّفاع عن عقيدتهم، والحرص على نشر دعوتهم في شتى الأقطار، وهو ما أوجد شعراً وافراً يواكب تلك الغزوات، ويعبر عنها، ويستلهم المفهومات الدّينيّة في مضامينه التي يتناولها.

وقد آثرت أن تتناول هذه الدّراسة (شعر غزوات النبيّ ﷺ) للوقوف على هذا الشعر، ومعرفة أبعاده وتصوّراته، وما يحمله من قيم فنيّة وسمات خاصّة.

أمّا المنهج الذي اتّبعت في هذه الدّراسة فيقوم على الجمع بين المنهجين الاستقرائي والتحليلي الفني في الوقوف عند شعر الغزوات، وبيان الجوانب التي تناولها، وقد اقتصرت الدّراسة على الغزوات التي قيل فيها شعر، أمّا التي لم يرد فيها شعر فقد استثنيتها، وأوردت ما جاء نادراً من شعر في بعض الغزوات في ثنايا البحث، كما تناولت الدّراسة الجوانب الفنيّة في شعر الغزوات وذلك من خلال الوقوف على بعض القيم الفنيّة والسمات الأسلوبية.

وقد تكوّنت خطة البحث من فصلين، يسبقهما مقدّمة، وتتلوهما الخاتمة،

وتفصيل ذلك كالآتي:

الفصل الأوّل بعنوان: (الشعر في مواكبة الغزوات) . واشتمل على

المباحث التالية:

(١) - غزوة بدر.

(٢) - غزوة أحد.

- (٣) - غزوة الخندق.
- (٤) - غزوة مؤتة.
- (٥) - فتح مكة.

أما الفصل الثاني فهو بعنوان: (التقييم الفني في شعر الغزوات).

واشتمل على المباحث التالية:

- (١) أثر القرآن الكريم في أسلوب الشعر.
- (٢) اللغة الشعرية.

(٣) الصورة الفنية.

وأخيراً جاءت الخاتمة، وتضمنت خلاصة للبحث.

أما الفهرسان، فكان أحدهما للمصادر والمراجع، والآخر للموضوعات.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه خير مسؤول. وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .



الفصل الأول: الشعر في مواكبة الغزوات

كان عصر صدر الإسلام حافلاً بالوقائع المتوالية ضدّ المشركين، إذ كانت المعارك تدور معركة في إثر معركة، وقد أوجد ذلك صوراً مفعمة بالبسالة والتضحية بين المجاهدين الذين كانوا يلاقون عتاة المشركين ويتصدّون لهم، ويوقعون بهم الهزائم، وذلك ما صوره الشعر في تلك الفترة، فقد واكب الأحداث، وأبرزها في صورة واضحة للعيان، تعبّر عن عظم المهمة التي قام بها أولئك المجاهدون، وما قدموه خلالها من التضحية بالنفس والنفيس.

هو ما يدلّ على الدور العظيم الذي قام به الرسول الكريم ﷺ فقد استطاع أن يطوّر الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والحربية خلال - عقدين ونيّف من الزمن، وأن يجهّز الجيوش والفرسان لنشر الدعوة الإسلامية في مختلف الأمصار وقد صور الشعراء غزوات الرسول ﷺ ومعاركه، وعلى رأسهم حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة - رضوان الله عليهم أجمعين - الذين جاء شعرهم ناطقاً حياً ومعبراً صادقاً عن المعارك والغزوات، سواء أكانت داخل الجزيرة العربية أم خارجها، فجاء الشعر مفعماً بتصوير تلك الملاحم البطولية، التي سطرها المسلمون، وقدموا خلالها أروع التضحيات من أجل نصرة الدعوة الإسلامية.

ومن يتأمل في أثر الشعر في تلك الحقبة الزمنية، وقدرته على حفز الهمم والعزائم يدرك ما كان ينبغي أن يصنعه الشعر من تأثير فاعل في مواجهة الأعداء الذين ما فتئوا يسيئون للدعوة الإسلامية ويهجون الرسول الكريم والمسلمين، وهو ما ظهر جلياً في أشعارهم التي ردت عادية الأعداء، وتصدّت لسهامهم، فكانت تقوم بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وذلك ما أبان عنه بوضوح الحديث النبوي الشريف الذي روته عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجم فهاجمهم، فلم يرّض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم إلى حسّان بن ثابت، فلما دخل حسّان قال: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبيه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه ثم قال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإنّ أبا بكر أعلم

قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي، فأتاه حسّان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسأل الشعرة من العجين». قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هجاهم حسّان فشفني واشتفني»^(١).

وقد عدّ النبي ﷺ الشعر المدافع عن الإسلام نوعاً من أنواع الجهاد، وذلك في قوله ﷺ: «المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل»^(٢).

فكان شعراء المسلمين يشاركون بقصائدهم في كل ما يعرض من أحداث، ويصفون المعارك الإسلامية.

وسوف يظهر بوضوح أثر شعر الغزوات في وصف المعارك التي دارت بين المسلمين والمشركين، وإبراز القيم الإسلامية السامية التي أفصح عنها المسلمون، وهم يسرون في الغزوات، ويخوضون المعارك، وتتحقق لهم الفتوح التي طالما انتظروها، لينشروا دعوتهم الإسلامية في كل الآفاق، ويعلنوا عن دينهم الحق الذي ارتضاه المولى - عز وجل - ديناً لكل البشرية. وفي مقدّمة تلك الغزوات التي خاضها المسلمون في عهد النبي ﷺ .

(١) غزوة بدر:

لقد سجّل الشعر غزوات النبي ﷺ والوقائع التي دارت بين المسلمين والمشركين، وقد كانت البداية الأولى غزوة بدر التي التقى فيها المسلمون بجحافل قريش، وأذاقوهم مرارة الهزيمة، وقتلوا كبار رجالهم، وتركوهم مجندين في أرض المعركة، حيث قُتل أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وغيرهم من كبار المشركين الذين تحالفوا على حرب المسلمين، وهو الجانب الذي صورّه حسّان بن ثابت ﷺ في قصيدته الرائية التي يقول فيها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى مَكَّةَ الَّذِي قَتَلْنَا مِنَ الْكُفَّارِ فِي سَاعَةِ الْعُسْرِ

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٣٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٦٥.

قَتَلْنَا سِرَاةَ الْقَوْمِ عِنْدَ رِحَالِهِمْ
فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَّا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ
قَتَلْنَا أَبَا جَهْلٍ وَعُتْبَةَ بَعْدَهُ
وَشَيْبَةَ أَيْضاً عِنْدَ ثَائِرَةِ الصَّبْرِ^(١)
وَكَمْ قَدْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرَزَّعٍ
لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابِهِ الذُّكْرِ
تَرَكَنَاهُمْ لِلخَامِعَاتِ^(٢) تَتَوَّبُهُمْ
وَيَصْلُونَ نَاراً ثُمَّ نَائِبَةَ الْقَعْرِ
بُكْفَرِهِمْ بِاللَّهِ وَالِدَيْنِ قَائِمٌ
وَمَا طَلَبُوا فِينَا بِطَائِلَةِ الْوَتْرِ
لَعْمَرِي لَقَدْ قَلَّتْ كِتَابُ غَالِبٍ
وَمَا ظَفِرَتْ يَوْمَ التَّقَيْنَا عَلَى بَدْرِ
لَقَدْ شَقِيتُ كَعَبٌ جَمِيعاً وَعَامراً
بَأْسِيْأَفْنَا يَوْمَ التَّقَيْنَا عَلَى بَدْرِ
قَتَلْنَاهُمْ قَتَلَ الْكِلَابِ فَلَمْ نَدَعِ
لَهُمْ فِي جَمِيعِ النَّاسِ يَا صَاحِ مِنْ فَخْرٍ^(٣)

ولقد كان رسوخ المعتقد في نفوس الشعراء يدعوهم إلى التوكل على الله، والثقة به، ورجاء النصر الذي لن يفارقهم ما داموا متوكلين على خالقهم - عز وجل - غير آبهين بالأعداء ولا بكثرة عددهم وعتادهم، وهو ما صورّه حسان رضي الله عنه يوم بدر، عندما لقوا الكفار بعزيمة قويّة، وإرادة عالية، فكان النصر حليفهم، رغم كثرة عدد المشركين، حيث يقول في هذا المعنى:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللَّهِ قَوْمًا وَإِنْ كَثُرُوا وَأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ

(١) عبثة وشيبة: ابنا ربيعة بن عبد شمس من كبار قريش وساداتها، وقد قُتلا في بدر.
(٢) الخامعات: الضبع، سميت كذلك لأنها تخمّع إذا مشت. (انظر: اللسان ٧٩/٨).
(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٦٦. تحقيق: د. سيد حنفي حسنين.

إِذَا مَا أَلْبُوا جَمْعاً عَلَيْنَا كَفَانَا حَدَّهْمُ رَبُّ رُؤُوفُ
 سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالْعَالِي سِرَاعاً مَا تَضَعُضِعْنَا الْحُتُوفُ
 فَلَمْ تَرَ عَصَبَةً فِي النَّاسِ أَنْكِي لِمَنْ عَادُوا إِذَا لَقَحَتْ كَشُوفُ
 وَلَكِنَّا تَوَكَّأْنَا وَقَانَا مَا آثَرْنَا وَمَعَقَلْنَا السُّيُوفُ
 لَقِينَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا وَنَحْنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوفُ^(١)

فهذه الأبيات تحمل في دلالتها المعنى العميق لآيات القرآن الكريم في
 نفس الشاعر، فقد استلهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنفال، وأبان
 عنه في البيت الأول: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِيّ أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا
 وَيُقَالُ لَكُمْ فِيّ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
 الْأُمُورُ﴾ (٢). (٣)

حيث تحمل الأبيات الشعرية معاني التضحية والفداء، والرغبة في
 الجهاد في سبيل الله صفًا واحداً، ونبذ الهيبة من الأعداء مهما بلغوا من
 الكثرة في العدد والعتاد، وهذه العزيمة الصادقة أبرزتها كثير من القصائد
 الشعرية التي تناولت الغزوات، ووصفت ما دار فيها من قوة المواجهة بين
 الجيشين.

(١) ديوان حسّان بن ثابت ص ٣٩١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٣) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر د. عبد الرحيم زلط ص ١٤٢.

وفي وصف غزوة بدر يشير حسان رضي الله عنه إلى عظم قدرة الله تعالى، وكيف أنه نصر جنده في تلك الموقعة، وخذل المشركين المعاندين، الذين تكبروا وتجبروا على دعوة الحق، فأمهلهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول:

وَخَيْرٌ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ بِصِدْقٍ غَيْرِ إِبْخَارِ الْكَذُوبِ

بِمَا صَنَعَ الْمَلِيكَ غَدَاةَ بَدْرِ لَنَا فِي الْمَشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ

غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمْ حِرَاءٌ بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنْحَ الْغُرُوبِ

فَلَا قَيْنَاهُمْ مِمَّا بَجَمْعٍ كَأَسَدِ الْغَابِ مِنْ مُرْدٍ وَشَيْبِ

أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ آزَرُوهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي وَهْجِ الْخُرُوبِ

بَأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ وَكُلُّ مَجْرَبٍ خَاطِي الْكُغُوبِ

فَعَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيحًا وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجَبُوبِ

وشيبة قد تركنا في رجالٍ ذوي حسبٍ إذا انتسبوا حسيب^(١)

حيث أبانت هذه الأبيات عن شدة موقعة بدر، وما حدث فيها من قتل سادة قريش وفرسانهم، فقد تركوا مجندين في أرض المعركة والطير تحوم فوقهم في مشهد يدل على بسالة المجاهدين، وتمكنهم من أعدائهم. ولا غرابة في

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٣٤-١٣٥.

ذلك فقد كانت التّضحية والفداء تتقدّمان تلك المعركة، وذلك حين تسابق الصّحابة - رضوان الله عليهم- لحمل السّلاح ومقاتلة أعداء الإسلام، وذلك سعياً وراء رضوان الله تعالى، وطمعاً بجنّته التي وعد بها الشّهداء في سبيله. وحينما قال الرّسول ﷺ يوم بدر: «والذي نفس محمّد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلّا أدخله الله الجنّة»^(١)، فقال عمير بن الحُمَام السّلمي ؓ، وكان يأكل تمرات بيده: بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلّا أن يقتلني هؤلاء! ثمّ قذف التّمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتّى قُتل، وهو يقول:

رَكُضاً إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التَّقَى وَعَمَلِ المَعَادِ

وَالصَّبْرِ فِي اللَّهِ عَلَى الجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةٌ النَّفَادِ

غَيْرُ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ (٢)

(٢) غزوة أحد:

تعدّ غزوة أحد الموقعة الثانية التي دارت بين المسلمين وكفار قريش بالمدينة المنورة، وذلك حين عزم كفار قريش على أن يثأروا لهزيمتهم ببدر، وما أصابهم فيها من الخسائر في الأرواح والأموال وسقوط هيبتهم، حيث بدأوا يعدّون العدة لأخذ الثأر من المسلمين، فجمعوا قبائلهم وعشائرهم ومن حالفهم من مكة وجوارها وجاءوا قاصدين النيل من رسول الله ﷺ في عدد من الرّجال يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل، بينما كان عدد المسلمين الذين خرجوا وثبتوا لهذه المعركة لا يزيد على الأربعمئة مجاهد، وقد انتهت المعركة لصالح المشركين، حيث استطاع الكفار قتل بعض قادة المسلمين، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب ؓ ورجع الرّسول ﷺ بمن معه من الرّجال إلى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٢٧، تحقيق: مصطفى السقا وآخران.

(٢) تاريخ الرّسل والملوك للطبري ٢/٤٤٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

المدينة، بينما عادت جحافل الكفار ومعهم جرحاهم وبقلوبهم فرحة الثأر لقتلاهم في بدر التي حاقت بهم الهزيمة فيها.

وقد كان للشعر دوره في غزوة أحد، حيث وصف الشعراء ما دار فيها من أحداث ومواقف، ودارت مساجلات بين شعراء المسلمين وشعراء الكفار، ورثى الشعراء من استشهدوا في تلك الغزوة، وفي مقدمتهم حمزة بن عبد المطب ﷺ (١).

وأولى هذه القصائد التي نظمها الشعراء في تلك الغزوة قصيدة حسّان بن ثابت ﷺ التي ردّ فيها على هبيرة بن أبي وهب المخزومي - شاعر المشركين - الذي خالجه السرور والتعالي بما حقّقه قومه في أحد، وهو ما ظهر في قصيدته التي يقول مطلعها:

سُقْنَا كِنَانَةَ مَنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنِ عَرَضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا (٢)

فقد ردّ عليه حسّان بن ثابت ﷺ بقوله:

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجُنِدَ اللَّهُ مُخْزِيهَا

أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً فَالْنَارُ مَوْعِدُهَا، وَالْقَتْلُ لَاقِيهَا

أَنْتُمْ أَحَابِيشُ جُمِعْتُمْ بِلا نَسَبٍ أُمَّةَ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا

هَلَّا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ لَقِيْتُمْ أَهْلَ الْقَلْبِ وَمَنْ أَرْدَيْنَاهُ فِيهَا

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكَّنَاهُ بِلا ثَمَنِ وَجَزَّ نَاصِيَةَ كُنَا مَوَالِيهَا (٣)

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٦١.

(٢) السيرة النبوية ٣/١٣٠.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ٢٠٥.

حيث يشير حسَّانٌ ﷺ إلى صنيع المشركين وجهلهم، حين ساقوا جيوشهم من بني كنانة لقتال النبي ﷺ والمسلمين وكيف أنهم رجعوا خائبين خاسرين أمام جند الله الذين أذاقوهم مرارة الهزيمة، بل يشير حسَّانٌ إلي صنيع المسلمين بأسرى بدر الذين أطلقوهم بلا ثمن، ليعلم أولئك عظمة النصر الذي حقَّقه المسلمون وعلو مكانته.

أمَّا كعب بن مالك ﷺ فقد أجاب هُبيرة بقصيدة طويلة وصفت ما دار في غزوة أحد، وما حفلت به الموقعة من شدَّة وضراوة، حيث بدأ قصيدته بوصف مكان المعركة، وأنها كانت أرضاً صعبة المسالك وعرة الدروب، لا يسلكها إلا حمر الوحش أو النعام، وقد امتلأت بالجيف من مخلفات الوحوش وعظام الفرائس، يقول:

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا وَدُونَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ خَرَقٌ سَيْرُهُ مُنْتَنِعٌ (١)

صَحَارٍ وَأَعْلَامٌ كَأَنَّ قَتَامَهَا مِنْ الْبُعْدِ نَقَعٌ هَامِدٌ مُتَقَطِّعٌ (٢)

تَظَلُّ بِهِ الْبُزْلُ الْعَرَامِيْسُ رُزْحًا وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السَّنِينِ فَيَمْرِعُ (٣)

بِهِ جَيْفُ الْحَسْرَى يُلَوِّحُ صَلِيْبَهَا كَمَا لَاحَ كِتَّانُ التَّجَارِ الْمَوْضَعُ (٤)

بِهِ الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِيْنَ خَلْفَةً وَبِيضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ (١) يَنْقَلَعُ (٢)

(١) الخرق: الفلاة التي تنخرق فيها الرِّيح. ومنتنع: مضطرب.

(٢) الأعلام: الجبال المرتفعة. والقتام: ما مال لونه إلى السواد.

(٣) البزل: جمع بازل وهو البعير القوي. والعرمس: الناقة الشديدة. ويمرع: يخصب.

(٤) الصليب: ودك العظام. والموضع: المبسوط والمنقوش.

ثمَّ يصف كعب ﷺ بطولة المؤمنين الذّائدين عن دين الله، مذكراً المشركين
في أحد بهزيمتهم السّاحقة التي واجهتهم في بدر، يقول:

(١) العين: البقر الوحشي. الأرام: الطّباء. القيض: قشر البيض الأعلى.
(٢) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٢.



مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ فِخْمَةٍ (١) مُدْرَبَةٌ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ (٢)
 وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصَّوَانِ كَأَنَّهَا إِذَا لُبِسَتْ نَهْيٌ مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعٌ (٣)
 وَلَكِنْ بِيَدْرِ سَأَلُوا مَنْ لَقَيْتُمْ مِنَ النَّاسِ، وَالْأَنْبَاءُ بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ (٤)

ثم يشير كعب ﷺ إلى الاستعداد النفسي لتلك الموقعة، وكيف أن الكفار ضربوا خيامهم وأبنيتهم بأرض المعركة، ورأى المؤمنون كثرتها فتشاوروا فيما بينهم ماذا يمنعهم من السكوت على ما بدأهم به الكفار؟ وكيف لا يتشاورون مع رسول الله ﷺ فيما ينبغي فعله؟ فقوله الحق، ومن أعرض عن نصحه فقد باء بالخسران، وبعد المشاورة أبان لهم الرسول ﷺ أن من كانت نيته للجهاد حقيقةً والطمع فيما عند الله تعالى فعليه أن يشمر لذلك؛ ليظفر بما أعدّه الله - عزَّ وجلَّ - لعباده المؤمنين الصادقين^(٥)، وفي ذلك يقول:

وَلَمَّا ابْتَنَوْا بِالْعَرَضِ (٦) قَالَ سَرَاتْنَا عِلَامَ إِذَا لَمْ نَمْنَعِ الْعَرَضَ نَزْرَعُ؟

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَتَطَّلَعُ

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ يُنَزِّلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ

(١) قال ابن هشام: وكان كعب بن مالك قد قال: مجالدنا عن جِذْمِنَا كُلِّ فِخْمَةٍ. فقال رسول الله ﷺ: أَيْصَلِحْ أَنْ تَقُولَ مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا؟ فقال كعب: نعم. فقال رسول الله ﷺ: فهو أحسن، فقال كعب: مجالدنا عن ديننا. (انظر السيرة النبوية ١٣٦/٢).

(٢) مجالدنا: مدافعنا. والفخمة: الكتيبة العظيمة. المُدْرَبَةُ: المتعوده على القتال الماهرة فيه.

(٣) الصموت: الدرع. الصوان: كل ما يُصان فيه الشيء، درعا كان أو ثوبا أو غيرهما. النَّهْيُ: الغدير. ومُتْرَعٌ: أي: مملوء ماءً.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٣.

(٥) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٦٥.

(٦) العرض: موضع خارج المدينة. وكلُّ وادٍ فيه شجر فهو عرض.

إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَا نَطِيعٌ وَنَسَمَعُ

نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا (١)

ذَرُّوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ واطمَعُوا

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا

إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيُرْجَعُ

وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقْرُبًا

عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ

وَلَكِنْ خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا

ضُحْيًا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَتَخَشَّعُ (٢)

فَسِرْنَا عَلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ

ثم يصل كعب ﷺ إلى وصف المعركة وأحداثها، بدءاً من بيان عدد المقاتلين من الطرفين، وانتهاءً بما حدث في أرض المعركة من التحام الجيشين، حيث تُسدّد الطّعنات، وتُصوّب الرّماح، وتهرع الخيول، وتسبح في الفضاء كأنها الجراد المنتشر، وفي ذلك يقول:

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَهُ أَحَابِيثٌ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقْتَنَعٌ

ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعُ

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ (٣)

نُشَارِعُهُمْ (٤) حَوْضَ الْمَنَايَا وَنَشْرَعُ

نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا

وَمَا هُوَ إِلَّا الْيَثْرَبِيُّ (٥) الْمُقَطَّعُ

تَهَادَى قَيْسِيُّ النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ

(١) قَصْرُنَا: غابتنا ونهاية أمرنا.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) النَّصِيَّةُ: الخيارُ من القوم.

(٤) نُغَاوِرُهُمْ: أي نغير عليهم. ونُشَارِعُهُمْ: أي نشاربهم.

(٥) الْيَثْرَبِيُّ: الأوتار، نسبة إلى يثرب.

وَمَنْجُوفَةٌ حَرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ (١)
يُذَرُّ عَلَيْهَا السَّمُّ سَاعَةً تُصْنَعُ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرَّجَالِ وَتَارَةٌ
وَحَيْلٌ تَرَاهَا بِالْفَضَاءِ كَأَنَّهَا
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَى
ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَائِهِمْ (٤)
فَنَلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا
وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ
وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ
وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ
وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ
وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ

ويختتم كعب قصيدته بتعداد صفات جيش المسلمين في أنهم يقدمون على الحرب متى كانت دفاعاً عن عرض أو عقيدة وليس لمغنم دنيوي، وأنهم تدربوا على الحرب وألغوها، فلا يهابون أعداءهم، ولا يتراجعون في المواجهة، وقد عرفوا آداب القتال فلا يجزعون إن أُصيبوا، فالحرب سجال دائماً، وإن ظفروا بالعدو فلا فحش ولا تمثيل بالقتلى أو إذلال للأسرى وإنما

(١) المنجوفة: السهام المتفقة. والحرمية: نسبة إلى أهل الحرم. والصاعديّة: نسبة إلى صاعد، وهو صانع معروف.

(٢) تصوب: تقع. والبصار: الحجارة اللينة. وتقعق: نُصوت.

(٣) الصبأ: ريح شرقية. والقرّة: البرد. ويترّيع: يجيء ويذهب.

(٤) سرائهم: خيارهم.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

منهج الإسلام في معاملة المتحاربين والأسرى^(١)، حيث يقول كعب واصفاً
بطولة ذلك الجيش المسلم:

ونحن أناسٌ لا نرى القتل سبَّةً على كلِّ من يحمي الذُّمارَ (٢) ويمنَعُ

ولكننا نَقْلِي الفِرَارَ، ولا نرى الـ فِرَارَ لمن يرجو العواقبَ يَنفَعُ

جِلادٌ (٣) على ريب الحوادث لا ترى على هالكٍ عينا لنا الدهرَ تَدْمَعُ

بُنُو الحَرْبِ لا نَعِيَا بشيءٍ نَقُولُهُ ولا نحنُ ممَّا جَرَّتِ الحَرْبُ نَجْرَعُ

بُنُو الحَرْبِ إِنْ نَظَفَرُ فَلَسْنَا بِفَحْشٍ ولا نحنُ مِنْ أَظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ

وكُنَّا شِهَاباً يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّةَ ويفرُّجُ عنه من يليه ويُسْفَعُ (٤)

وبينما كانت المعارك تدور بين المسلمين والمشركين فقد كان هناك من
يفخر من المشركين بما تحقَّق في غزوة أحد ناسياً صنيع المسلمين في بدر،
ومن أولئك الشعراء عبد الله بن الزبير^(٥) الذي افتخر في إحدى قصائده
التي يقول فيها:

يا غرابَ البينِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئاً قَدْ فُعِلْ

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٦٨.

(٢) السُّبَّةُ: العار. والذُّمارُ: ما يجب على الرَّجُلِ حمايته.

(٣) جِلادٌ: جمع جليدٍ وجِلْدٌ وهو الصَّلْبُ.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٥) هو عبد الله بن الزبير بن قيس بن عدي بن سعد السهمي القرشي، كان شديداً على
المسلمين يهجوهم ويحرِّضُ المشركين عليهم، وقد أسلم بعد فتح مكة، واعتذر من النَّبِيِّ ﷺ
عماً بدر منه. وكانت وفاته سنة ١٥ هـ. (انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير
١٦٠/٣).

كَمْ قَاتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ ماجِدِ الْجَدِّينِ مِقْدَامٍ بَطْلٍ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ (١)

فانبرى له حسّان بن ثابت ؓ يردّ عليه، ويبين له أنّ الحرب سجال بين الطرفين، وأنّ المسلمين قد نالوا من المشركين في أحد كما نال المشركون منهم، مذكراً إياه بما لاقوه من الهزيمة في ((بدر))، وكيف قتل ساداتهم، وهرب فرسانهم في تلك الموقعة، وباعوا بالخزي والخذلان، حيث يقول
حسّان ؓ:

ذَهَبَتْ بَابِنِ الزَّبَعْرِى وَقَعَةٌ كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فِيهَا لَوْ عَدَلْ
وَلَقَدْ نَلْتُمْ وَنَلْنَا مِنْكُمْ وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ أحياناً دُولٌ

نَضَعُ الْأَسْيَافَ فِي أَكْتافِكُمْ حَيْثُ نَهْوِي عَلاً بَعْدَ نَهْلِ

إِذْ تُؤَلُّونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ هُرْباً فِي الشَّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلِ (٢)

إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادِقَةً فَأَجَانَاكُمْ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ

وَعَلَوْنَا يَوْمَ (بَدْرِ) بِالتَّقَى طَاعَةَ اللَّهِ، وَتَصَدِيقَ الرَّسُلِ

وَتَرَكْنَا فِي فُرَيْشٍ عَوْرَةً يَوْمَ بَدْرِ وَأَحَادِيثَ الْمَثَلِ (٣)

(١) شعر عبد الله بن الزّبيرى ص ٤١ - ٤٢، تحقيق: د. يحيى الجبورى.

(٢) الرّسل: الإبل المرسلّة بعضها في إثر بعض.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ٩٣ - ٩٤.

أما كعب بن مالك رضي الله عنه فبرد في قصيدته اللامية على كل من تناول على المسلمين من شعراء قريش، ويوضح لهم أنه إذا كان هناك من قادة المسلمين من قتل في (أحد)، وهو ما أفرح المشركين وشعراءهم فإن عليهم أن يعودوا بذاكرتهم إلى ما أصابهم في (بدر)، وما واجهوه من صور البطولة والتضحية التي أبداها المسلمون^(١)، حيث يقول:

وَأَبْلَغُ قَرِيْشًا وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَالصَّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَبَابِ مَقْبُولُ
 أَنْ قَدْ قَاتَنَا بِقَاتِلَا سَرَاتِكُمْ أَهْلَ اللَّوَاءِ، ففِيمَ يَكْثُرُ الْقِيْلُ؟
 وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجَبْرِيلُ
 إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ اللَّهِ فِطْرَتَنَا وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلُ
 وَإِنْ تَرَوْا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سَفَاهًا فَرَأَيْ مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ تَضْلِيلُ
 فَلَا تَمَنَّوْا لِقَاحَ الْحَرْبِ وَافْتَعِدُوا إِنْ أَخَا الْحَرْبِ أَسْدَى اللَّوْنِ مَشْعُولُ^(٢)
 إِنْ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبًا تَرَاخُ لَهُ عَرَجُ الضَّبَاعِ لَهُ خِذْمٌ رَعَابِيْلُ^(٣)
 إِنَّا بَنُو الْحَرْبِ نَمْرِيهَا وَنَنْتَجُهَا وَعِنْدَنَا لَذَوِي الْأَضْغَانِ تَنْكِيْلُ^(٤)

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٧٠.

(٢) لِقَاحُ الْحَرْبِ: زيادتها ونموها. وَأَسْدَى اللَّوْنِ: لونه بين السواد والحُمْرة. وَمَشْعُولُ: أي متقد متلهب.

(٣) تَرَاخُ: تفرح وتهتز. وَالخِذْمُ: قطع اللحم. وَالرَّعَابِيْلُ: المنقطعة.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

وكما يظهر فقد أثرت غزوة أحد في نفوس الشعراء في عهد النبي ﷺ، ودعتهم إلى التجاوب معها، والتعبير عن مواقفها وأحداثها، والتصدي لمن حاول الإساءة للنبي ﷺ وللمسلمين، وهو ما قام به شعراء المشركين بعد الموقعة، الأمر الذي دعا شعراء المسلمين إلى الرد عليهم، وكشف أكاذيبهم وتخرصاتهم، وبيان أثر الإسلام في كل ما تحقق للمسلمين من عزّة ومنعة.

(٣) غزوة الخندق:

في السنة الخامسة للهجرة تجمعت قوى الشرك لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين بالمدينة، وتزعّم أبو سفيان تلك الجموع من القرشيين ومن والاهم من غطفان والقبائل المجاورة، ويأتي الجميع إلى المدينة المنورة قاصدين القضاء على الإسلام بجحافلهم وعدّتهم الحربيّة التي لم يكن للمسلمين قبلها، ولم يكتفوا بذلك بل تعاهدوا مع يهود بني قريظة في حصونهم حول المدينة من أجل القضاء على المسلمين.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بتآمرهم وتحزّبهم جمع المسلمين وأعلمهم ما عزم عليه أبو سفيان ومنّ والاه من غطفان واليهود، وتشاور معهم، وانتهت مشورتهم بحفر خندق حول المدينة حتى يمكنهم التحصّن فيها، فإذا دهمهم العدو نالوه ولا ينالهم، وبدأ المسلمون حفر الخندق، وكان الرسول ﷺ يعاونهم في حفره ويشدّ من عزيمتهم، ويرغبهم فيما عند الله تعالى من الأجر^(١)، حتى إذا اكتمل حفر الخندق جاءت فلول المشركين التي تجمعت من قبائل عدّة، وتحزّبت لحرب المسلمين، يقودهم إلى ذلك طمعهم واستكبارهم وعتوهم، حيث نزلوا بجانب أحد^(٢)، وهناك ظهر لهم المسلمون الذين كان عددهم يقدر بثلاثة آلاف، والخندق يفصل بين الفريقين، فخرج من بين صفوف المشركين عمرو بن ود العامري - وكان معلماً - وقال: من يُبارز؟ فخرج له من المسلمين عليّ بن أبي طالب ﷺ وقال له: يا عمرو إنك عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فقال له: أجل، فقال له عليّ: فأني

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٩٤.

(٢) السيرة النبويّة ٢/٢١٦ - ٢١٧.

أدعوك إلى النزال، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فو الله ما أحبُّ أن أقتلك، فقال له عليٌّ: لكنِّي والله أحبُّ أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعفره، وضرب وجهه، ثمَّ أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ ﷺ وخرجت خيلهم منهزمة، حتَّى اقتحمت من الخندق هاربة^(١).

وقد وصف عليٌّ ﷺ ذلك الحدث والموقف الشجاع الذي أبان عن قوَّة المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام في أبيات شعريَّة، قال فيها:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِي

فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتَهُ مُتَجَدِّلاً كَالجِدْعِ بَيْنَ دَكَادِكِ وَرَوَابِي (٢)

وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنَّنِي كُنْتُ الْمُقَطَّرَ بَرَزْنِي أَثْوَابِي (٣)

لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِلَ دِينِهِ وَنَبِيَّهَ يَا مَعْشَرَ الْأَحْزَابِ (٤)

وقد شكَّ ابن هشام في نسبة هذه الأبيات لعليِّ بن أبي طالب ﷺ^(٥). ولم يكن تحزُّب الأعداء واتِّحادهم لحرب المسلمين أمراً يثير الهيبة أو الخوف في قلوب المجاهدين، الذين نذروا أنفسهم للدِّفاع عن عقيدتهم، ونصرة نبيِّهم ﷺ حيث لقاء الأعداء هو لقاء الشجاعة، والنصرة، والتضحية لقوم دربوا على القتال، وعلموا أنفسهم في الحرب حتَّى أصبحوا ظاهرين للناس جميعاً، وكأنَّهم أسود يحمون عرينهم، ويدافعون عن رسالتهم

(١) السيرة النبوية ٢/٢٢٥.

(٢) مُتَجَدِّلاً لاصفاً بالأرض. والجِدْعُ: فرع النَّخْلَةِ. والدَكَدُكُ والدَكَدَاكُ: أرضٌ فيها غلظ، والجمع دَكَادِكُ.

(٣) المُقَطَّرُ: الذي ألقي أحد قطريه، أي جنبيه، والقطر: الجانب. وبرزني: سلبني.

(٤) السيرة النبوية ٢/٢٢٥.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٢٥.

الخالدة^(١).. وهي المعاني التي أشار إليها كعب بن مالك ﷺ في قصيدته التي

قالها يوم الخندق، حيث قال:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يَمْعَمِعُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُحْرَقِ (٢)

فَلَيَاتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سِيُوفُهَا بَيْنَ الْمِدَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخَنْدَقِ (٣)

دَرَبُوا بِضَرْبِ الْمُعْلَمِينَ (٤) وَأَسْلَمُوا مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ

فِي عُصْبَةٍ نَصَرَ الْإِلَهَ نَبِيَّهُ بِهِمْ، وَكَانَ بَعْبُدِهِ ذَا مَرْفَقِ (٥)

ويمضي كعب ﷺ في قصيدته إلى وصف السلاح، فيصور الدروع تحكي

حلقاتها في سردها المحكم وشكلها الموثق أحداق الجنادب، فهي مستديرة

الحلق، تشمرها للحرب حمائل السيوف الصارمة، حيث يقول:

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخْطُ فُضُولُهَا كَالنَّهْيِ (٦) هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرْقِرِ

بِيضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا حَدَقَ الْجَنَادِبِ ذَاتَ شَكِّ مُوثِقِ (٧)

جَدَلَاءَ يَحْفَرُهَا نِجَادُ (٨) مُهَنْدِ صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمِ ذِي رَوْنِقِ

تَلْكُمَ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا يَوْمَ الْهِيَاجِ وَكُلِّ سَاعَةٍ مَصْدَقِ (٩)

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٩٦.

(٢) المعمعة: اختلاط الأصوات وشدة زجلها. الأباء: القصب، ومعمعة الأباء: صوت الحريق في القصب.

(٣) المأسدة: الموضع الذي تجتمع فيه الأسود. وتسن: تُحد. والمداد: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق، وقيل هو بين سلع وخندق المدينة. والجزع: الجانب.

(٤) المعلمين: الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٤.

(٦) السابغة: الدروع الكاملة. النهي: الغدير من الماء.

(٧) القنير: مسامير الدروع. والجنادب: ذكور الجراد. والشك: إحكام السرد.

(٨) الجدلاء: الدروع المحكمة أو المدورة الحلق. ويحفرها: يرفعها. والنجاد: حمائل السيوف.

(٩) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٥.

والبيت الأخير يصور أهمية التقوى والإيمان في الحروب التي يخوضها المسلمون؛ إذ ليس من طبعهم أن يركنوا إلى العدة المادية دون أن يدخروا في نفوسهم زاد التقوى الذي يوصلهم إلى غايتهم الكبرى التي يبتغونها من وراء نصرتهم للإسلام.

أما الإعداد للمعركة - وهو الجانب الذي أمر به المسلمون وهم يواجهون أعداءهم - فيشير إليه كعب بن مالك من خلال إعداد الخيول الأصيلة المضرة، التي تصعد بفرسانها إلى حلبة القتال، وتمكنهم من اصطيد أعدائهم، والظفر عليهم، يقول:

وَنَعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مَقْلَصٍ
تَرْدَى بِفِرْسَانَ كَأَنَّ كَمَا تَهُمْ
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الْكَمَاةَ حُوفَهُمْ
أَمَرَ الْإِلَٰهَ بِرِبْطِهَا لِعَدُوِّهِ
لِتَكُونَ غَيْظًا لِلْعَدُوِّ وَحِيَّطًا
وَيُعِينَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيبُهُ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِيهَا

وَرَدٍ وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أَبْلَقِ (١)
عِنْدَ الْهِيَاجِ أُسْوَدُ ظِلٌّ مُثَقِّقِ (٢)
تَحْتَ الْعِمَايَةِ بِالْوَشِيحِ الْمُرْهَقِ (٣)
فِي الْحَرْبِ، إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مُوَفِّقِ
لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خِيُولُ النَّزْقِ (٤)
مِنْهُ، وَصَدُقِ الصَّبْرِ سَاعَةً نَلْتَقِي
وَإِذَا دَعَا لِكْرِهَةٍ لَمْ نُسَبِّقِ
وَمَتَى نَرَا الْحَوْمَاتِ (٥) فِيهَا نَعْتِقِ (٦)

(١) المقْلَص من الخيول: طويل القوائم ضامر البطن. والورد: الفرس الأشقر الذي حمرة لونه ذاهبة إلى الصفرة. والمحجول: الذي في قوائمه بياض يخالف سائر لونه. والأبلق: إذا تجاوز البياض إلى عضديه وفخذه.

(٢) ترد: تُسرِع. الكَمَاة: جمع كميٍّ وهو الشُّجاع. المَثَقِّق: ما يكون عن الطَّل من زلق وطين.

(٣) العِمَايَة: سحابة الغبار وظلمته. والوشيح: الرِّمَّاح. المرْهَق: المذهب للنفوس.

(٤) دَلَفَتْ: تقدّمت. النَّزْقُ: الطائشون، السبيو الخلق.

(٥) الحَوْمَات: مواطن القتال، واحدها حَوْمَة.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

وفي هذه الموقعة تظهر أكثر من قصيدة شعرية وهي تنافح عن المسلمين، وترد عادية الأعداء، ومن تلك القصائد قصيدة حسان بن ثابت ؓ التي تصدى فيها للرد على شاعر الكفار آنذاك عبد الله بن الزبير الذي أخذ يفتخر بموقف قومه يوم الخندق، ويتناول على المؤمنين، وذلك في قصيدته البائية^(١). حيث نظم حسان بانيته التي يرد فيها على ابن الزبير، ويبيّن له الهدف البائس الذي جاءوا من أجله وهو قتل النبي ﷺ والاستيلاء على الغنائم، ولكنهم لم يظفروا من ذلك بشيء، يقول حسان:

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا قَتَلَ النَّبِيَّ وَمَعْنَمَ الْأَسْلَابِ
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ رُدُّوا بَغِيظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ
بِهُبُوبٍ مُعْصِفَةٍ تَفَرِّقُ جَمْعَهُمْ وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ
وَكَفَى الْإِلَٰهَ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ (٢)

ومن شعراء المشركين من ظل يتوعد بعد هزيمة الخندق، ويعد برد قاس في موقعة لاحقة يصطف منها جيش المشركين لمنازلة المسلمين، وذلك ما يعبر عنه شاعرهم ضرار بن الخطاب^(٣) الذي رأى أن المعركة لم تنته بعد، وأن المنازلة ستكون قريبة، حيث يعبر عن ذلك في قصيدته النونية التي قال فيها:

وَمُشَفِّقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا وَقَدْ قَدْنَا عَرْدَسَةَ طَحُونَا (٤)
وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِرِينَ
بِجَمْعٍ مِنْ كِنَانَةٍ غَيْرِ عَزْلٍ كَأَسَدِ الْغَابِ قَدِ حَمَتِ الْعَرِينَا (٥)

(١) انظر: ديوان عبد الله بن الزبير ص ٢٩، والقصيدة مطلعها:

حَيَّ الدِّيَارَ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمَهَا طُولُ الْبَلَى وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٠.

(٣) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي الفهري، فارس شاعر، قاتل المسلمين، واسلم يوم فتح مكة. (انظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ٣٣٧/١).

(٤) العردسة: الشديدة القوية، يريد الكتيبة. والطحون: التي تطحن كل ما مرت به.

(٥) السيرة النبوية ٢٥٤ - ٢٥٥.

لكنَّ كعب بن مالك ﷺ يردُّ على ضرار بن الخطَّاب، ويوضِّح له طبيعة القتال معه، وأسباب النَّصر التي تنزل عليهم من خالقهم، فهم يسعون إلي رفع راية الإسلام، يتقدَّمهم النبيُّ ﷺ الذي دعاهم إلى دين الهدى والحق، وحثَّهم على الصَّبْر واليقين في مواجهة الأعداء، حيث قال:

وَسَائِلُهُ تَسَائِلُ مَا لَقِينَا وَلَوْ شَهِدَتْ رَأْتْنَا صَابِرِينَ
صَبْرَنَا لَا نَرَى لِلَّهِ عِدْلًا عَلَيَّ مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَ
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو الْبَرِيَّةَ أَجْمَعِينَ
نُقَاتِلُ مَعْشَرَ ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بِالْعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَ (١)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ الْمُتَسَرِّعِينَ
وَفِي أَيْمَانِنَا بَيْضٌ خَفَافٌ بِهَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاعِبِينَ (٢)
بِبَابِ الْخَنْدَقِينَ كَأَنَّ أَسْدًا شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِينَ الْعَرِينَا
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهَ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَ
وَيَعْلَمُ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَ
بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهٗ شَرِيكٌ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

وقد أراد الرَّسول ﷺ أن يؤمِّن المدينة وحدودها بعد موقعة الخندق مع قريش وبخاصَّة من الفتنة التي كان يوقد جذوتها يهود بني قريظة وبني النَّضير، الذين اشتركوا في موقعة الخندق مع قريش، وقصدوا إثارة الفتنة بين النَّاس في المدينة أثناء الموقعة، حيث نقضوا عهد الأمان التي أبرمها المسلمون، ولجأوا للغدر والمكيدة، لأجل ذلك وجَّه النبيُّ ﷺ جيشه لمحاربتهم، حيث حاصرهم في حصونهم، وانتصر عليهم، وباعت كل مكائدهم بالفشل،

(١) المُرْصِدُ: المُعَدُّ للأمر عدَّته.

(٢) المِرَاحُ: النَّسَاط. والشَّاعِبِينَ: الذين ديدنهم الشَّعب وتهدج الشَّر.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

ونالوا جزاء ما كانوا يفعلونه مع المسلمين من الإخلاف بالعهد والتحالف
 مع المشركين، يقول حسّان ؓ:
 لَقَدْ لَقَيْتَ قُرَيْظَةَ مَا سَاءَهَا وَحَالَ بِحِصْنِهَا ذُلٌّ ذَلِيلٌ
 فَمَا بَرِحُوا بِنَقْضِ الْعَهْدِ حَتَّى غَزَاهُمْ فِي دِيَارِهِمُ الرَّسُولُ
 أَحَاطَ بِحِصْنِهِمْ مَنَا صُفُوفٌ لَهُ مِنْ حَرٍّ وَقَعْتَهَا صَلِيلٌ
 وَصَارَ الْمُؤْمِنُونَ بِدَارِ خُلْدٍ أَقَامَ لَهُمْ بِهَا ظِلٌّ ظَلِيلٌ (١)

(٤) غزوة مؤتة:

كانت غزوة مؤتة - في السنة الثامنة للهجرة - أول معركة تقع بين جيش المسلمين وجيش الروم الذين وصلتهم الأخبار عن قوة ذلك الجيش المسلم، وكان سبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ أرسل الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير (بصرى) من جهة هرقل، وهو الحارث بن أبي شمّر الغساني، فلما نزل مؤتة تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله، فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ اشتد ذلك عليه، وجّه جيشاً لمقاتلة ملوك الروم^(٢). وقد أمر ﷺ مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف من المسلمين، وندب الناس وقال لهم: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل ابن رواحة فليترض المسلمون بينهم رجلاً فليجعله عليهم^(٣). والتقى الجيشان جيش المسلمين وجيش الروم - الذي كان يقدر عدده بمائتي ألف مقاتل - في مكان يقال له مؤتة، فقاتل زيد بن حارثة ﷺ براية رسول الله ﷺ حتى قُتل في رماح القوم، ثم أخذ الراية من بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فقاتل بها حتى إذا أحمه القتال، وأحاط به العدو من كل جانب، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها حتى لا تقع في يد العدو، ثم أقبل يقاتل وهو يردد أبياتاً تحمل معاني الشجاعة والبرسالة والتضحية في ما

(١) ديوان حسّان بن ثابت ص ٢٤٥.

(٢) انظر: تأملات في سيرة الرسول ﷺ، د. محمد السيّد الوكيل ص ٢٣٧.

(٣) انظر: السيرة النبوية ٣٧٣/٢.

عند الله من النعيم والرضوان، ودخول الجنان، فهو يقاتل ابتغاء ما عند الله،
والجنة عنده أسمى مطلوب، وفي ذلك يقول ﷺ :
يَا حَبَّبَ ذَا الْجَنَّةِ وَأَقْتِرَابُهَا طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَى إِذْ لَاقَيْنَهَا ضِرَابُهَا (١)

ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ﷺ .

ثم أخذ الرأية من بعده عبد الله بن رواحة ﷺ فتقدم يقاتل الروم، فدخل
نفسه شيء من روع لا يخلو منه الموقف، فجعل يحفز نفسه ويشد من
عزيمتها، وهو يردد بعض الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

أَقْسَمْتُ يَا لَتَنْزِلَنَّ نَفْسٌ لَتَنْزِلَنَّ
أَوْ لَتُكْرَهَنَّ أَوْ لَتُكْرَهَنَّ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّتَّةَ (٢) مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِيَنَّ
الْجَنَّةَ

قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتُ مُطْمَئِنِّئَةً
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةِ (٣)

ثُمَّ تَقَدَّمَ يَفَاتِلُ، فَأُصِيبَتْ إِصْبَعُهُ، فَارْتَجَزَ قَائِلًا:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتِي هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَّتِ
وَمَا تَمَيَّنِيَّتِ فَقَدْ لَقِيَّتِ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيَّتِ

وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيَّتِ (٤)

(١) المصدر السابق ٢/٣٧٨.

(٢) أَجْلَبَ القومُ: صاحوا واجتمعوا. والرِّتَّةُ: صوتٌ فيه ترجيع يشبه البكاء.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة - ودراسة في سيرته وشعره - د. وليد قصاب ص ١٥٣.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

فقاتل حتى قتل ﷺ.

ومن القصص التي تروي صور البطولة والإقدام في حياة الشاعر عبد الله ابن رواحة ﷺ تلك التي رواها ابن هشام. إذ يروي أن رسول الله ﷺ حين جهز جيش المسلمين لملاقاة الروم، وكان ابن رواحة القائد الثالث للمعركة إن استشهد سابقاه، وهما زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب -رضي الله عنهما- فلما ودّع عبد الله من رسول الله مع من ودّع بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله -عز وجل- يذكر فيها النار ﴿وَكَانَ عَلَىٰ رِجَالِكُمْ أَنْ لَا بِئْسَ رَجُلًا يُغِيبُ عَنِ النَّارِ إِذْ أُمِرَ بِاللَّحْمِ وَالشَّارِبِ وَالْخَبْزِ فَأَنْزَلَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ فِي سُحُبٍ مُّجْتَمِعَةٍ يَفْتَثُونَ﴾ (١)، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين (٢)، ثم أنشد ابن رواحة أبياتاً يعبر فيها عما في نفسه وهو يسير في الجهاد راجياً مغفرة ربه ورضوانه، والفوز بالشهادة في سبيله، إذ قال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً
وضربة ذات فرغ تقذف الزبداً (٣)
أو طعنة بيدي حران مجهزةً
بحربة تنفذ الأحشاء والكبداً (٤)
حتى يقال إذا مروا على جدتي
أرشده الله من غازٍ وقد رشداً (٥)

وكان المسلمون لما نزلوا (معان) من أرض الشام هالهم ما رأوا من كثرة عدد الروم وما يملكونه من عتاد، وبدأوا يفكرون في ذلك، وهل يرسلون إلى الرسول ﷺ يخبرونه بذلك أم لا؟ فقام عبد الله بن رواحة ﷺ يشجعهم ويستحثهم على القتال، مبيناً لهم أن النصر لا يتحقق عن كثرة العدد أو العدة وإنما يتحقق بالصبر والمصابرة والطاعة والإخلاص في إعلاء راية الإسلام، وهزيمة المشركين، فالمجاهد في سبيل الله يقاتل الأعداء وهو يرجو الظفر

(١) سورة مريم، الآية ٧١.

(٢) انظر: السيرة النبوية ص ٣٧٣/٢ - ٣٧٤.

(٣) ذات فرغ: الفرغ مخرج الماء من الدلو. والزبدا: الرغوة.

(٤) الحران: العطشان. مجهزة: مسرعة متممة، يقال: أجهز على الجريح إذا أماته.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٤٧.

بإحدى الحسينيين، إِمَّا النَّصْرَ وَإِمَّا الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١). فَتَشَجَّعَ النَّاسُ وَقَالُوا: قَدْ - وَاللَّهِ - صَدَقَ ابْنُ رَوَاحَةَ، وَأَنشَدَ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ يَقُولُ:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَاٍ وَفَرَعٍ^(٢) تَغْرُ مِنْ الْحَشِيْشِ لَهَا الْعُكُومُ^(٣)

حَذَوْنَاهَا مِنْ الصَّوَّانِ سَبْتًا أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ^(٤)

أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانَ فَأَعْقَبَ بَعْدَ فَنَرْتِهَا جُمُومُ^(٥)

فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ مُسَوَّمَاتُ^(٦) تَنْفَسُ فِي مَنَاحِرِهَا السُّمُومُ

فَلَا وَابِي مَابٍ^(٧) لِنَأْتِيْنَهَا وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومٌ

فَعَبَّأْنَا أَعْنَتَهَا عَوَابِسَ، وَالْغُبَارُ لَهَا بَرِيمُ^(٨)

فَجَاءَتْ

بِذِي لَجَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ ضَ إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النَّجُومُ^(٩)

فِيهِ

فَرَاضِيَّةُ^(١٠) الْمَعِيْشَةِ طَلَّقَتْهَا أَسْنَتَهَا، فَتَنَكَّرَ حُجٌّ أَوْ تَنِيمُ^(١١)

وفي ليلة السفر إلى مؤتة، وبينما كان الطريق طويلاً وشاقاً، كان عبد الله ابن رواحة ﷺ يستغرق في الأمل بالشهادة والفوز بروضان الله - عزَّ

(١) انظر: السيرة النبوية ٢/٣٧٥.

(٢) أجَا: أحد جبلي طيء، والآخر سلمى. والفرع: اسم موضع.

(٣) تغرُ: تطعم شيئاً بعد شيء. والعُكُومُ: جمع عكَم، وهو الجنب.

(٤) الصَّوَّان: حجارة مُلَس، واحدها صوانة. أزل: أجلس. الأديم: الجلد.

(٥) الجموم: النشاط والراحة.

(٦) مسوَّمات: معلَّمت.

(٧) مَاب: اسم مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء.

(٨) البريم في الأصل: خيطان مختلفان أحمر وأبيض، وكلُّ ما فيه لونان مختلطان فهو بريم.

(٩) اللجب: اختلاط الأصوات وكثرتها. والبَيْضُ: ما يوضع على الرأس من الحديد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.

(١٠) راضية: أي مرضية.

(١١) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٤٩ - ١٥٠.

وجلّ - إذ ذهب يناجي ناقته، ويبشّرها بتحريرها من الأسفار، فلا عودة إليّ
بلاد النخيل، لأنّه عزم في قرارة نفسه على شدّ الرّحال إلى جوار ربّه - جل
وعلا - حيث يقول:

إِذَا أَدْبَيْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي	مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِسَاءِ (١)
فَشَأْنُكَ أَنْعَمٌ، وَخَلَائِكُ ذَمٌّ وَلَا	أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَأْيِي
وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادِرُونِي	بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِي الثَّوَاءِ
وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ	إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِخَاءِ
هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ (٢)	وَلَا نَخْلٌ أَسَافِلُهَا رِوَاءِ (٣)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تعلق الشاعر بالشهادة، والسّير لأجلها
على راحلته، التي بلغته رحلته المأمولة، ولقي ما كان يرجوه من الاستشهاد
في سبيل الله، والفوز برضوانه - عزّ وجلّ - وهي صورة مؤثّرة تعكس
روح التضحية والفداء التي قدّمها أولئك المجاهدون في تلك الغزوات.

(٥) فتح مكة:

كانت الإرهاصات لهذا الفتح المجيد منذ وقت مبكر، ففي نهاية العام السادس
للهجرة عزم النبي ﷺ أن يدخل مكة معتمراً، فاستنفر المؤمنين بالمدينة
ليخرجوا معه، فلما شعر أهل مكة بقدومه أرسلت إليه قريش تستطلع الأمر
أقتال أم عمرة، فلما علموا بحقيقة الموقف أخذتهم العزة بالإثم، وطلبوا عقد
هدنة مع النبي ﷺ والمسلمين تقضي بأن يكف عنهم القتال لعشرة أعوام وأن
يرجع إلى المدينة عامهم هذا، فإذا انصرم جاء ومن معه من المسلمين
معتمرين في العام القابل، وبعد عودته ﷺ إلى المدينة جرت أحداث كثيرة
نقض المشركون خلالها الهدنة وأغاروا على (خزاعة) الداخلة في عهد
رسول الله ﷺ، فجهّز - عليه السلام - الجيش المؤمن وقاده إلى مكة، وحمل

(١) أدبَيْتَنِي: أوصلتني. والحساء: جمع حسيّ، وهو ماء يغور في الرّمْل.

(٢) البعل: النخل الذي يشرب بعروقه من الأرض فيستغني عن السقي، ويقال: استبعل النخل: أي: شرب
بعروقه.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥١.

علي بن أبي طالب ﷺ اللواء، وفتحت مكة ودخلها رسول الله ﷺ ومن معه وكان ذلك نصراً عظيماً للمسلمين^(١).

وقد واكب الشعر ذلك الفتح، وأشاد الشعراء بما تحقّق للمسلمين في هذا الفتح من عزٍّ ومنعة ونصر للإسلام، حيث أظهرت القصائد الشعرية قدرة جيش المسلمين على الفتح، وتمكين الله تعالى لهم. ومن ذلك ما يظهر في قول بجير بن زهير^(٢) حين يصف هذا الفتح، ويشير إلى الطريقة التي التقى فيها الجمعان، جيش المسلمين بعزيمته وصبره وتوكله على الله تعالى، وجيش الكفر بتخاذله وانكساره، فكانت الصيحات والطعان وقفزات خيل المؤمنين معبرة عن الفرح بنصر الله، فقد أنهال المؤمنون على خصومهم ضرباً بالسيف، وطعناً بالرماح، حتى تحقّق لهم ما كانوا يأملون فيه من الهجرة، وباء الكفار بالهزيمة والخسران، وفي ذلك يقول بجير:

ضربناهم بمكة يوم فتح النـ
صبحناهم بسبع^(٣) من سليم
نطأ أكتافهم ضرباً وطعناً
ورشقاً بالمريشة اللطاف^(٤)
بي الخير بالبيض الخفاف
والألف من بني عثمان واف

ترى بين الصفوف لها حفيفاً
فرحنا والجياد تجول فيهم
كما انصاع الفواق من الرصاص^(٥)
بأرماح مقومّة النّفاف

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٢١-١٢٢.

(٢) هو: بجير بن زهير بن أبي سلمى المزني، أسلم قبل السنة السابعة للهجرة، ودعا أخاه كعباً للإسلام، وشهد مع المسلمين بعض الغزوات ومنها فتح مكة. (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/٢: ١٤١).

(٣) بسبع: أي بسبع مائة. وبنو عثمان: هم مزيّنة.

(٤) نطأ: أراد نطأ، فحَقَّف الهمزة. والرشق: الرمي السريع. والمريشة: يعني السهم ذوات الريش.

(٥) الحفيف: الصوت. وانصاع: انشق. والفواق هنا: الفوق، وهو طرف السهم الذي يلي الوتر. والرصاص: جمع رصفة، وهي عصبة تلوى فوق السهم.

فَأَبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا
وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَّا
وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَاتَنَا فَهَمُّوا
وَأَبُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ
مَوَاقِنًا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي
غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانصِرَافِ

ويتوقف العباس بن مرداس السلمى^(١) عند فتح مكة بعد أن اشترك مع قومه من بني سليم في ذلك الفتح، حيث يبين في إحدى قصائده القوة العددية لقومه الذين شاركوا تحت إمرة النبي الكريم ﷺ موضحاً ما كانوا عليه من الإقدام، والبسالة، والتضحية من أجل تحقيق النصر، حيث يقول:

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ
نَصَرُوا الرَّسُولَ، وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ
فِي مَنْزِلٍ ثَبَّتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ
جَرَّتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا
أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبِطَاحُ (٢) مُسَوِّمٌ
وَشِعَارُهُمْ (٣) يَوْمَ اللَّقَاءِ مُقَدَّمٌ
ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْهَنْتَمُ (٤)
حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَارُ الْأَدْهَمُ

اللَّهُ مَكْنَهُ لَهُ وَأَذَلَّهُ
عَوْدُ الرَّيَاسَةِ شَامِخٌ (٦) عَرِينُهُ
حُكْمُ السُّيُوفِ لَنَا وَجَدُّ مِرْحَمٌ (٥)
مُتَطَلِّعُ ثَغْرِ الْمَكَارِمِ خَضْرُمٌ (٧)

وينطلق حسّان بن ثابت^(٥) في همزيته من جانب الدفاع عن الدعوة الإسلامية وصاحبها ﷺ الذي ما فتئ المشركون يكيلون له السباب، والتهم، ويرمونه بأبشع الصفات في وقت هو يسعى إلى هدايتهم ودخولهم الدين الحق

(١) هو: العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السلمى، يكنى أبا الهيثم، وهو من شعراء البادية، أسلم قبيل فتح مكة، وشارك مع قومه في الجهاد ونصرة الإسلام، توفي سنة ١٨هـ. (انظر: الإصابة لابن حجر ٣/٤٢١).

(٢) البطاح: جمع بطحاء، وهي الأرض السهلة المتسعة.

(٣) شعارهم: علامتهم في الحرب.

(٤) ضنك: ضيق. والهام: الرؤوس. والهنتم: الحنظل.

(٥) مزحم: كثير المزاحمة، يريد أن جدّهم غالب.

(٦) العود (هنا): الرجل المسنن. وشامخ: مرتفع، والخضرم: الجواد الكثير العطاء.

(٧) السيرة النبوية ٢/٤٢٦ - ٤٢٧.

لينعموا بسماحته وعدله، ولكن أئمة الكفر ورؤوس الفتنة ظلوا يكيدون له،
ولذا هجاهم حسّان ر بما قدّمت أيديهم في تعذيب المؤمنين، والتطاول على
سيد المرسلين ﷺ، حيث يقول:

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سَفِيَانَ (١) عَنِّي
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍ
هَجَوْتُ مُبَارِكًا بَرًّا حَيِّفًا
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي
لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ
فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِبٌ هَوَاءٌ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ
فَشَرَكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفَاءُ
أَمِينُ اللَّهِ، شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ
لِعَرَضٍ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
وَبَحْرِي مَا تَكَدَّرَهُ الدَّلَاءُ (٢)

وكما يظهر في البيت الأخير فإنّ حسّان ﷺ يفخر بفصاحته وبلاغته
وجودة شعره، فإذا كان الأعداء يظنون أنهم ينالون من المسلمين بشعرهم
فإنّ هذا السلاح هو أمضى وأقوى لدى المسلمين؛ لأنهم يدعون إلى الحق،
ويذودون عن عقيدتهم بسنانهم ولسانهم.

ويصف العباس بن مرداس ﷺ طريقة الجيش الفاتح في السير إلى
الجهاد، وكيف أنهم يسيرون تحت إمرة النبي الكريم ﷺ ويطيعونه فيما أمر،
ويجتنبون ما نهى عنه، الأمر الذي حقّق لهم الفلاح، وأخضع الأقوام للدخول
في دين الله، وفي ذلك يقول:

فَمَنْ مُبْلَغُ الْأَقْوَامِ أَنَّ مُحَمَّدًا
دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ وَحَدَّه
سَرِينًا وَوَاعَدْنَا قَدِيدًا مُحَمَّدًا
تَمَارُوا بِنَا فِي الْفَجْرِ حَتَّى تَبَيَّنُوا
رَسُولُ إِلَهِ رَاشِدٌ حَيْثُ يَمَّمَا
فَأَصْبَحَ قَدْ وَفَى إِلَيْهِ وَأَنْعَمَا
يَوْمُ بِنَا أَمْرًا مِنَ اللَّهِ مُحْكَمًا
مَعَ الْفَجْرِ فَتَيَانًا وَغَابًا مُقَوَّمًا

(١) هو أبو سفيان الحارث بن عبد المطلب.

(٢) ديوان حسّان بن ثابت ص ٧٥-٧٦.

فَإِنَّ سِرَاةَ الْحَيِّ إِنْ كُنْتَ سَائِلًا سَلِّمْمْ وَفِيهِمْ مِنْهُمْ مَنْ تَسَلَّمَ
وَجُنْدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يَخْذُلُونَهُ أَطَاعُوا فَمَا يَعْصُونَهُ مَا تَكَلَّمَ (١)

وبعد الفتح الإسلامي وما أدخله من فرح في النفوس توجّه المسلمون بقيادة الرسول ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الدخول في الإسلام، وبيان موقفهم منه، وكان مع الركب المتجه إلى الطائف كعب بن مالك ؓ الذي نظم قصيدته في وصف المعارك التي خاضها جيش المؤمنين، وقد تكلمت بالنصر المؤزر، وما تبع ذلك من دخول الناس في دين الله أفواجا حتى وصل ذلك الجيش إلى الطائف (٢)، ليكمل رسالته في نشر الدعوة الإسلامية، حيث يقول كعب في مطلع قصيدته:

قَضِينَا مِنْ تِهَامَةَ كُلِّ رَيْبٍ وَخَيْرَهَا، وَلَوْ نَطَقْتَ لَقَالَتْ
فَلَسْتُ لِحَاضِنِ (٤) إِنْ لَمْ تَرَوْهَا قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْسًا أَوْ نَقِيفًا
وَنَنْتَزِعُ الْعُرُوشَ بِيْطُنِ (وَجِّ) (٥) بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنْ أَلُوفَا
وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْلٍ وَتُصْبِحُ دُورِكُمْ مِنْ خُلُوفَا
بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَقَاتٍ يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفًا
كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا يُزِرُّنَ الْمُصْطَلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا
تَخَالُ جَدِيَّةَ الْأَبْطَالِ فِيهَا فَيُؤْنُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْرَبْ كَثِيفَا (٦)
غَدَاةَ الزَّحْفِ جَادِيًّا (٧) مَدُوفَا (٨)

(١) السيرة النبوية ٤/١١٠-١١١.

(٢) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ٢٣٩.

(٣) أجممنا: أرحنا.

(٤) الحاضن: المرأة التي تحضن ولدها.

(٥) وج: من أسماء الطائف. (انظر: معجم البلدان ٥/٣٦١).

(٦) العقائق: جمع عقيقة، وهي شعاع البرق. وكتيف: جمع كتيفة، وهي الصفائح الحديد التي تستعمل في صنع الأبواب.

(٧) الجديّة: الطريقة من الدم. والجادي: الزعفران. ومدوف: مخلوط بغيره.

(٨) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

وبعد هذه المقدمة التي أبان فيها كعب ﷺ عما صنعه المسلمون مع أعداء الدعوة الذين لم يستجيبوا لنداء الحق، انطلق بعد ذلك إلى إنذار المشركين بما ينتظرهم من سوء العاقبة إن لم يتبعوا الطريق الحق، وإشهادهم بأنهم قادمون، فمن أثر السلام فليسلم بما جاء به المصطفى ﷺ ليعيش عيشة راضية، ومن لم يسلم، أو تحدّثه نفسه بالموادعة، فليتحمل وزره ووزر من اتبعه، أو استجاب لنصحه^(١)، حيث ينطلق كعب في هذا المعنى فيقول:

أَجِدُهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحٌ مِنْ الْأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفًا (٢)
يُخَبِّرُهُمْ بِأَنَا قَدْ جَمَعْنَا عِتَاقَ الْخَيْلِ وَالنُّجُبِ الطُّرُوفًا (٣)
وَأَنَا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِرِخْفٍ يُحِيطُ بِسُورِ حَصْنِهِمْ صُفُوفًا
رَأَيْسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صَلْبًا نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفًا

رَشِيدَ الْأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وَعِلْمٍ وَحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزَقًا خَفِيفًا
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفًا
فَإِنْ تَقُفُوا إِلَيْنَا السَّلْمَ نَقْبَلُ وَنَجْعَلُكُمْ لَنَا عَضْدًا وَرِيفًا (٤)
وَإِنْ تَأْبَوْا نَجَاهِدْكُمْ وَنَصْبِرُ وَلَا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفًا
نُجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تُنِيبُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا (٥)
نُجَاهِدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا أَهْلَكْنَا التَّلَادَ أَمْ الطَّرِيفَا

(١) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ٢٤٠.

(٢) أَجِدُهُمْ: بكسر الجيم وفتحها بمعنى: أوجدت منك هذا، ونُصبت على طرح الباء. وَعَرِيفًا: عارفًا.

(٣) عِتَاقُ: جمع عتيق. وَالنُّجُبُ: جمع نجيب. وَالطُّرُوفُ: جمع طرف (بكسر الطاء)، وكلها صفات للخيل بمعنى: الكريمة الأصل.

(٤) الرَّيْفُ: الموضع المخصب على الماء. يريد نَحْذِكُمْ أعواناً على الحرب، ونستمدُّ من ريفكم العيش.

(٥) نُجَالِدُ: نحارب بالسُّيُوف. ومضيفًا: ملجئًا.

لأمرِ اللهِ والإِسْلامِ حتَّى يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَيْفًا (١)

فقد أبان كعب ؓ في هذه الأبيات عن السبب في المضي إلى الجهاد وتحقيق الانتصارات وهو الدعوة إلى الإسلام والدخول فيه، وإخراج الناس من دياجير الشرك والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان، لذا كانت هذه الدعوة هي السمة البارزة في شعر الغزوات، حيث أبان الشعراء في كثير من قصائدهم عن حرصهم على دخول الناس في هذه الدعوة المباركة، والاستنارة بنور الإسلام، كي يتفوقوا ظلاله، وينعموا بسماحته وعدله.

* * *

الفصل الثاني : القيم الفنيّة في شعر الغزوات

أولاً: أثر القرآن الكريم في أسلوب الشعر

من الجوانب البارزة في شعر الغزوات ما اتّسم به ذلك الشّعْر من الميل إلى الألفاظ والمعاني القرآنيّة، وذلك من خلال الاقتباس من الذّكر الحكيم، فقد تأثّر الشعراء من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - بالقرآن الكريم وبيدع أسلوبه وجمال معانيه، فكان أسلوبه المعجز محل اهتمامهم وإجلالهم، ولذا فقد عمدوا إلى الاستنارة بنوره، والإفادة من معانيه السّامية في أشعارهم، وهو ما ظهر جلياً في اقتباسات حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - وهو ما سيّضح من خلال الوقوف على تلك الأشعار.

الاقتباس من القرآن الكريم:

توقّف شعراء الغزوات عند بعض الآيات القرآنيّة، وتمثّلوا معانيها، وأدخلوها في أشعارهم التي تتحدّث عن نصره الإسلام، والدّفاع عن العقيدة الإسلاميّة، والتصدّي للمشرّكين الذين ما فتئوا ينالون من المسلمين، ويتعرّضون لهم بالهجاء. وكان من أولئك المتأثرين بالقرآن الكريم حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ فقد عبّر شعر الغزوات عنده عن معانٍ إيمانيّة عميقة، تستلهم رؤيتها الحقّة من القرآن الكريم، ومن ذلك ما يظهر في قوله:

وَقُلْتُمْ لَنْ نَرَى، وَاللّٰهُ يَبْصِرُكُمْ وَفِيكُمْ مُحْكَمُ الْآيَاتِ وَالْقِيَلِ
مَحَمَّدٌ وَالْعَزِيْزُ اللّٰهُ يُخْبِرُهُ بِمَا تَكُنُّ سَرِيْرَاتُ الْأَفَاوِيْلِ^(١)

فالببيت الأول مقتبس من قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُهَا وَهُوَ فَالْخَبِيْرُ ﴾^(٢). والببيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ

(١) ديوان حسّان بن ثابت ص ٣٠٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١﴾.

وفي رائية كعب بن مالك ﷺ التي ردَّ بها على قصيدة ضرار بن الخطاب يقول في مطلعها:
عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهِ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَادَ لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرٌ (٢)

فالببيت فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُٗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (٣). ويقول كعب ﷺ في بعض معانيه التي تستلهم المعاني القرآنية:

فَإِنْ يَكُ مُوسَى كَلَّمَ اللَّهَ جَهْرَةً عَلَى جَبَلِ الطُّورِ المَنِيفِ المِعْظَمِ
فقد كَلَّمَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى المَوْضِعِ الأَعْلَى الرَّفِيعِ المَسُومِ
وَإِنْ تَكُ نَمَلُ البَرِّ بالوهم كَلَّمَتْ سُلَيْمَانَ ذَا المَلِكِ الَّذِي لَيْسَ بِالعمي (٤)
فهذا نبيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ صِغَارُ الحَصَى فِي كَفِّهِ بِالتَّرْنَمِ (٥)

فالببيت الأول مقتبس من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ رَبَّهُ تَكْلِيمًا﴾ (٦).

أما البيت الثاني فيشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمُ لَا يَحْطَبَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ وَهُرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٧).

وحين يصف كعب ﷺ عدَّة الجيش المسلم فإنه يجعل في مقدمتها التقوى، فهي خير ما يتمسك به المؤمن ليحظى بالنصر والتأييد من خالقه - عز وجل - وفي ذلك يقول:

تَلْكُم مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِباسَنَا يَوْمَ الهِجَابِ وَكُل سَاعَةٍ مَصْدَقِ (٨)

(١) سورة القصص، الآية ٦٩.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ١٣٨.

(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ١٣٩.

(٥) المصدر السابق ص ٢٧٠.

(٦) سورة النساء، الآية ١٦٤.

(٧) سورة النمل، الآية ١٨.

(٨) ديوان كعب بن مالك ص ١٤٠.

ففي هذا البيت إشارة إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَالَمَكَ لِيَاسًا وَلِيَأْسَ النَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (١)

وفي غزوة مؤتة تظهر شجاعة جعفر بن أبي طالب ﷺ وبسالته فهو يطلب الجنة وما فيها من نعيم ورضوان، فيقول:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَأَقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدًا شَرَابُهَا (٢)

ويصف كعب بن مالك ﷺ دعوة النبي ﷺ لقريش للدخول في الإسلام وترك المعتقدات الباطلة التي يعتقدونها فكان جوابهم الإساءة لشخص النبي ﷺ، حيث يقول كعب:

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا فَوَلَّوْا وَقَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرٌ (٣)

ففي هذا المعنى إشارة إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعَجِبُوا لَقَدْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ ۖ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ (٤).

وفي غزوة مؤتة وقف عبد الله بن رواحة ﷺ ذلك الموقف البطولي، وذلك حين خاطب نفسه راجياً منها أن تطلب الشهادة في سبيل الله، وترجو ما عند الله - عز وجل - حيث يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَا لَتُكْرَهَنَّاهُ
قَدْ طَالَمَا قَد كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً جَعْفَرُ مَا أَطْيَبَ رِيحَ الْجَنَّةِ! (٥)

حيث يشير في الشطر الثاني من البيت الثاني إلى المعنى الوارد في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ (١).

وفي شعر حسّان بن ثابت ﷺ تظهر رباطة المجاهد المسلم المتوكّل على

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

(٢) السيرة النبوية ٢/٣٧٨.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ١٣٩.

(٤) سورة ص، الآية ٤.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٣.

(٦) سورة الواقعة، الآية ٨٨ - ٨٩.

الله، الذي لا يخشى كثرة عدد الأعداء ولا عدتهم، إذ يقول:
 فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللَّهِ قَوْمًا وَإِنْ كَثُرُوا وَأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ
 إِذَا مَا أَلْبُوا جَمْعًا عَلَيْنَا كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبُّ رُؤُوفُ
 لَقَيْنَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا وَنَحْنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أَلُوفُ (١)

ففي هذه الأبيات يظهر أثر المعاني القرآنية، حيث يشير البيت الأول إلى قوله تعالى:
 ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا
 كَانَ مَفْعُولًا﴾ (٢).

وفي البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَعْجِلُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ
 لَكُمْ بِمُيَّدِكُمْ بِأَلْفٍ بِأَلْمَلِكَةِ مُرْدِفٍ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
 وَاتَّظْمِينْ بِهِ قُلُوبِكُمْ وَمَا أَلْضَرُّ إِلَّا مِنْ فَ اللَّهِ فَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣).

ويشير عبد الله بن رواحة ﷺ إلى جهاد المسلمين، فيقول:
 نَجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عَرَضٍ فَنَاسِرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ، وَفِينَا تَنْزِلُ السُّورُ (٤)

لفظة (سورة) في الشطر الثاني مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ
 فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٥).

ويصف كعب بن مالك ﷺ خيول المسلمين التي أُعدت لحرب المشركين في
 موقعة الخندق، وما اتصفت به من الصفات، فيقول:

وَنُعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مَقْلَصٍ وَرَدِّ، وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أَبْلَقِ (٦)

أَمَرَ إِلَهَ بَرَبَطِهَا لِعَدُوِّهِ فِي الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مُوَفَّقِ (٧)

(١) ديوان حسّان ص ٣٥٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٩-١٠.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٨٣.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٢.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص ١٤٠.

(٧) المصدر السابق ص ٢٤٤.

فهذا المعنى فيه إشارة إلى قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١).
وعلى هذا النحو فقد ظهر أثر القرآن الكريم في أساليب الشعراء، الذين تحدّثوا عن الغزوات، وناقحوا عن عقيدتهم، وتصدّوا للمشركين في كثير من المواقع، وقد أعطى ذلك التّأثير شعرهم قوّة في التّعبير، وأسلوباً سهلاً أزاح عن طريقهم خشونة الألفاظ الجاهليّة التي كانت سمة بارزة قبل ظهور الإسلام.

* *

ثانياً: اللغة الشعرية:

اللغة عنصر رئيس من عناصر الإبداع الشعري، وهي الوسيلة التي تفصح عن مدلول الشاعر ومراده، وذلك من خلال ما يبثه في شعره من مشاعر وشجون.

والشعر الجيد هو الذي يمتاز بتجانس الألفاظ والمعاني، فترق تلك الألفاظ في المواضع التي تتطلب الرقة، وتجزل وتشتد في المواضع التي تتطلب الشدة والفخامة، وهو ما دعا إليه القاضي الجرجاني في قوله: ((أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني))^(١).

والمتمثل في ألفاظ شعر الغزوات يجد أنها اتسمت في جانب كبير منها بالجزالة، وقد حدد النقاد ملامح اللفظ الجزل في الكلام بأنه هو الذي ((يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاته في السمع))^(٢)، فلا تشوبه وحشية أو وعورة، كما بيّنوا المواضع التي يستعمل فيها اللفظ الجزل، ومنها ما ((يكون في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك))^(٣).

ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك رضي الله عنه في موقعة الخندق، التي يقول فيها:

مَنْ سَرَهُ ضَرْبُ يَمْعِمِعٍ بَعْضُهُ بَيْنَ الْمِزَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخَنْدَقِ
فَلِيَّاتٍ مَأْسَدَةٌ تُسَنُّ سِيُوفُهَا قَدْماً، وَتُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ
نَصِلُ السِّيُوفِ إِذَا قَصْرُنْ بِخَطُونَا بَلْهُ الْأَكْفَ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقِ
فَتَرَى الْجَمَاجِمَ ضَاحِيَا هَامَاتِهَا تَنْفِي الْجُمُوعَ كَقَصْدِ رَأْسِ الْمَشْرِقِ
نَلْقَى الْعَدُوَّ بِفَخْمَةٍ مَلْمُومَةٍ وَرَدٍ وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أَبْلَقِ
وَنُعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مَقْلَصٍ عِنْدَ الْهَيْجِ أَسْوَدُ ظَلٌّ مُثْقٍ (٤)

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٤.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/١٨٥.

(٣) المصدر السابق ١/١٨٥.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

حيث يصف كعب ﷻ حماسة جيش المسلمين، واستعدادهم للقاء المتحزبين من المشركين في يوم الخندق، وقدرتهم على إلحاق الهزيمة بهم إذا قدموا لحرب المسلمين، مبيّناً ما أمتاز به ذلك الجيش من التّعوّد على خوض المعارك ومنازلة الأعداء، وإعمال السيوف فيهم، حيث يظهر دور الفرسان المسلمين على خيولهم المضمرّة المعدّة للقتال فكأنهم أسود يحمون عربينهم، ويدافعون عنه بكلّ بسالة، وقد اعتمد الشّاعر في وصف تلك المشاهد الحماسية على الألفاظ الجزلة، ومن تلك الكلمات (ضرب، يجمع، المحرق، مأسدة، سيوفها، الجماجم، هاماتها، العدو، بفخمة، ملمومة، مقلّص، ورد، محجول، أبلق، بفرسان، كمامهم، الهياج، أسود، ملثق) فهي ألفاظ تتسم بالقوّة، وشدّة الجرس، وتوحي بجوّ المعركة، وما يكتنفه من اصطدام الجيوش، وصليل السيوف، وشدّة إعمالها في الأعداء.

ويستخدم العباس بن مرداس ﷻ الألفاظ الجزلة في وصف فتح مكّة، وما تحقّق فيه للمسلمين من عزٍّ ومنعة، يقول:

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ مُحَمَّدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاحُ مُسَوِّمٌ
فِي مَنْزِلٍ ثَبَّتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْحَنْتَمُ
جَرَّتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَازُ الْأَدْهَمُ (١)

فالشّاعر هنا يصور ما دار يوم فتح مكّة من حشد الجيوش المتأهّبة للفتح، ومنهم قومه من بني سلّيم الذين شاركوا بفرسانهم في ذلك الفتح، وأظهروا ثباتهم ورباطة جأشهم في تلك المناسبة العظيمة، وقد ألبس الشّاعر تلك المعاني ألفاظاً تناسبها في القوّة والشدّة، وتوحي بصور البسالة والإقدام، حيث اعتمد في ذلك على ألفاظ اتّسمت بالمتانة والجزالة، ومن تلك الألفاظ ((تسيل، البطاح، مسوّم، ضنك، الهام، الحنتم، جرّت، سنابكها، استقاد، الأدهم) فهذه الألفاظ ترسم صورةً تموج بالحركة والقوّة، لتجسد ما شهده ذلك الفتح من قوّة وشجاعة من قبل جيش المسلمين.

ومن الجوانب البارزة في شعر الجهاد شيوع الألفاظ الإسلامية التي جاءت

مع الدين الجديد، حيث تأثر بها الشعراء، وأدخلوها في معجمهم الشعري، فجاءت قصائدهم الشعرية تحفل بتلك الألفاظ، التي هي مظهر من مظاهر الشعر في عصر صدر الإسلام^(١). ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قول حسّان بن ثابت ؓ في موقعة الخندق:

وَكَفَى الْإِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابٍ
مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّجَ عَنْهُمْ تَنْزِيلُ نَصِّ مَلِيكِنَا الْوَهَّابِ
وَأَقْرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصِحَابِهِ وَأَذَلَّ كُلَّ مَكْذِبٍ مُرْتَابِ
مُسْتَشْعِرٍ لِلْكَفْرِ دُونَ ثِيَابِهِ وَالْكَفْرِ لَيْسَ بِطَاهِرٍ الْأَثْوَابِ (٢)

فالشاعر يشير إلى ما آلت إليه موقعة الخندق من تفرّق جموع المشركين، وتشتت حشودهم، ورجوعهم خائبين، وقد كفى الله المؤمنين القتال، وأثابهم الأجر على ما بذلوا في مواجهة الكفار، حيث كانت العزة للمسلمين، والذلة والخزي للكافرين.. وقد جاء النصُّ يزخر بالألفاظ الإسلامية، ومن ذلك (الإله، المؤمنين، أثابهم، الأجر، ثواب، تنزيل، نص، مليكنا، الوهاب، صحابه، مكذب، مراتب، الكفر، طاهر) فهذه الألفاظ أبانت عن المعنى العام الذي قصد إليه الشاعر، وأكسبته دلالةً جديدةً، تدلُّ على تأثر حسّان ؓ بالمعاني الإسلامية، والقيم الدينية التي أتى بها الدين الحنيف.

ويشير كعب بن مالك ؓ إلى أنّ الدعوة إلى الإسلام، والحرص على دخول الناس فيه هو السبب في مسيرة الجهاد، وانطلاق المسلمين لإعلاء راية الحق، حتى ينتشر الإسلام في شتى الأصقاع، يقول:

نُجَاهِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تَنَبَّيْنَا إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْ عَانَا مُضِيْفَا
نُجَاهِدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا أَأَهْلَكَنَا التَّلَادُ أَمْ الطَّرِيْفَا

(١) انظر: الشعر الإسلامي في صدر الإسلام د. عبد الله الحامد ص ١٠٥، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام لأيهم القيسي ص ٣١٧، الأدب في عصر النبوة والرّاشدين د. صلاح الدين الهادي ص ٢٥٩.

(٢) ديوان حسّان بن ثابت ص ١٢٠.

لَأْمُرِ اللَّهُ وَالْإِنْسَانَ حَتَّى يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَنِيفًا (١)

فقد اعتمد الشاعر في أبياته على القاموس الإسلامي، واختار منه ما يعبر عن مضمونه بما يناسبه من الألفاظ الإسلامية، ومنها (الإسلام، نجاهد، أمر الله، الدين، معتدلاً، حنيفاً).

ومن سمات التراكيب في شعر الجهاد غلبة البساطة والعفوية على هذا الشعر، فهو شعر مطبوع، يبتعد عن التعقيد والالتواء، وذلك يعود إلى أثر الثقافة الإسلامية النابغة من تأثير القرآن الكريم والحديث النبوي، وصفاء اللغة التي ورد بها، فهي لغة منتقاة، تبتعد عن الخشونة، كل ذلك أدى إلى وضوح التراكيب في شعر الجهاد وحسن تأليفها، وبعدها عن التنافر والتعقيد، ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك ؓ التي نظمها يوم الخندق، يقول:

وَسَائِلُهُ تَسْأَلُ مَا لَقِينَا وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَ
صَبْرُنَا لَا نَرَى لِلَّهِ عِدْلًا عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَ
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو الْبَرِيَّةَ أَجْمَعِينَ
نَقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بِالْعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَ (٢)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ الْمُتَسَرِّعِينَ
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهَ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَ (٣)

حيث يصف كعب ؓ ما أصاب المسلمين في موقعة الخندق التي تحزب فيها المشركون واليهود والقبائل الموالية لهم، وساروا لحرب المسلمين، الذين واجهوا أولئك المتحزبين بالصبر، واليقين، والتوكل على الله - عز وجل - فكان النصر حليفهم، وكانت الهزيمة والذلة من نصيب تلك الأحزاب التي تحالفت وتآمرت من أجل العدوان على المسلمين.. وقد عبر الشاعر عن تلك المعاني بألفاظ سهلة واضحة تتلاءم مع طبيعة الموضوع، وصاغها في عبارات متألفة

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٢) المرصد: المعيد للأمر عُدته.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

متجانسة، ومن تلك العبارات: (ولو شهدت رأنا صابرينا، على ما نابنا متوكِّلين، وكان لنا النبي وزير صدق، نقاتل معشراً ظلموا وعفوا، نعاجلهم إذا نهضوا إلينا) حيث يظهر ترابط تلك العبارات وتماسكها، وقدرتها على التعبير عما يرمي إليه الشاعر بوضوح. وهذه السمة تلاحظ بوضوح في أغلب الشعر الذي صاغه الشعراء حول الغزوات^(١)، حيث تأنقوا في صوغ عباراتهم، والعناية بأساليبهم، وبخاصة؛ لأن هذا الشعر يردُّ على المشركين، وينقض قصائدكم التي تعرَّضوا فيها للمسلمين^(٢).

* * *

(١) راجع مثلاً: ديوان حسَّان بن ثابت ص ٧١-٧٥، ٩٣، ٩٦، ١١٩، ١٢٠، ديوان عبدالله بن رواحة ص ١٣٨، ١٤٧، ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٤-٢٣٧، ٢٥٥-٢٥٨.

(٢) راجع مثلاً: السيرة النبوية ٢/٢٥٤ - ٢٥٥، ٢٥٧ - ٢٥٨، ديوان عبد الله بن الزبيري ص ٢٩-٣٠، ٣٧ - ٣٩، ٤٠ - ٤٣.

ثالثاً: الصورة الفنية:

تعدُّ الصورة من أهمِّ العناصر الفاعلة في القصيدة الشعرية، لكونها من الوسائل الفنية التي يعتمد عليها الشعراء في التعبير عن أفكارهم، لتقريب المعاني وزيادة توضيحها للتأثير في السامع. والصورة بناءً على ذلك ((ليست زينة شكلية، أو حلية مصطنعة، وإنما أداة أساسية لتوصيل الخبرة والتعبير عن الرؤية))^(١).

وتظهر الصورة بشكل أوضح من خلال ((الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية))^(٢) معتمداً في ذلك على وسائل التعبير المختلفة في رسم مشاهداته ونظرته الخاصة للأشياء.

وتأتي الفنون البيانية في مقدمة الصور التي استعان بها الشعراء في شعر الغزوات، وهي صور عمادها التشبيهات، والاستعارات، حيث لجأ إليها الشعراء في قصائدهم لما تمثله من قيمة فنية عالية.

ويعدُّ التشبيه من أكثر الفنون البيانية جرياناً في الشعر، فهو من أقدم صور البيان وأقربها إلى الفهم والأذهان، وبه يزداد المعنى وضوحاً ويكتسب تأكيداً^(٣).

ومن الصور التشبيهية ما يظهر في قول كعب بن مالك ؓ في موقعة بدر، حيث صور مسيرة جيش المسلمين لملاقاة المشركين، وكأنهم أسود تزار تنتظر فريستها، يقول:

فَسَارُوا وَسِرْنَا فَالتَّقِينَا كَأَنَّنا أَسُودُ لِقَاءِ لا يُرَجَى كَلِيمُهَا (٤)

كما صور حسَّان بن ثابت ؓ استعداد المسلمين للقتال، فقال:

فَتِيَانُ صِدْقِ كَاللُّيُوثِ مَسَاعِرٌ مَنْ يَلْفَهُمْ يَوْمَ الهِيَاجِ (٥) يُعَرِّدُ (٦)

(١) جماليات القصيدة المعاصرة د. طه وادي ص ٢١٢.

(٢) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د. عبد القادر القط ص ٣٩١.

(٣) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٢٨٧/١، تحقيق: د. محمد قرقران.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٦٦.

(٥) يوم الهياج: أي يوم الوقائع والمعارك الشديدة، يعرِّد: يفرُّ.

(٦) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٩٤.

حيث يصف فرسان المسلمين الذين يقفون في مقدّمة الصفوف للدّفاع عن عقيدتهم، والتّضحية من أجلها، ولذا أطلق عليهم فتیان صدق، وشبههم بالأسود الضّارية التي تدافع عن عرينها بكل حماسة وعزيمة، وهم مع ذلك يسعون نار الحرب، التي لا يقوى الأعداء على خوضها، بل يفرّون منها لجنبهم وخورهم.

كما شبّه شعراء الغزوات أعداءهم من المشركين بالنّعام، الذي يضرب به المثل في الجبن، وممّا جاء من أمثال العرب قولهم: (أندُ من نعامة)^(١) أي أنْفَر. حيث شبّه كعب بن مالك ﷺ فرار المشركين يوم بدر بالنّعام، فقال: فَاتَّكَ فَلَ الْمَشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ وَالْخَيْلُ تَتَفَنُّهُمْ نَعَامٌ شُرَدُّ (٢)

أمّا حسّان ﷺ فقد رأى تصويراً آخر لفرار المشركين في غزوة بدر، وذلك حين شبّههم بالإبل التي يسير بعضها في إثر بعض، مبيّناً هروبهم من أرض المعركة، ورجوعهم على أعقابهم بعد أن حمى الوطيس، وأحاط بهم المسلمون من كلّ جانب، حيث يقول في ردّه على قصيدة ابن الزّبّعي: إِذْ تَوْلُونَ عَلَيَّ أَعْقَابِكُمْ هَرْبًا فِي الشَّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَالِ (٣)

أمّا فرسان المسلمين الذين يواجهون الأعداء بكلّ بسالة فقد شبّههم حسّان ﷺ بالصّقور، في قوّة بأسهم، ونفاذ بصرهم، وتمكّنهم من خصومهم، يقول: لَهُ خَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعَادَى (٤) بِفِرْسَانَ عَلَيْهَا كَالصُّقُورِ (٥)

ويشير حسّان بن ثابت ﷺ إلى مكانة خبيب بن عدي^(٦) ﷺ وجهاده من أجل نصرة الإسلام، فيقول:

(١) مجمع الأمثال للميداني ٤١٣/٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ١٩١.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ١٨١.

(٤) الخيلُ المجنّبة: المقودة. وتعادى: تسرع.

(٥) ديوان حسّان بن ثابت ص ٢٤٥.

(٦) هو خبيب بن عديّ بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري، شهد بدرًا، وقُتل الحارث بن عامر بن نوفل، واستشهد في عهد النبي ﷺ. (انظر: الإصابة لابن حجر ١٨٥/٣).

صَقْرًا تَوَسَّطَ فِي الْأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ حُلُوَ السَّجِيَّةِ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْتَشَبِ (١)

وفي معركة بدر لم يجد كعب بن مالك ﷺ بدءاً من ذكر مسيرة ذلك الجيش المسلم، يقدمه الرسول الكريم ﷺ حيث يحثهم على الجهاد، ويقوي عزائمهم، وهم يصغون إليه، ويطيعونه في كل ما يقول، وقد لجأ كعب ﷺ إلى الصورة التشبيهية في هذا المقام، وذلك عندما شبه النبي ﷺ بالبدر، الذي يضيء للآخرين فينير لهم طريقهم، ويدلهم إلى طريق الرشاد والصلاح، يقول:

نَمْضِي وَيَذْمُرُنَا (٢) فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ (٣)

وفي صورة تشبيهية أخرى يشبّهه ﷺ بالشهاب، وهو يتوسط المسلمين، يقول كعب:

فِينَا الرَّسُولُ شَهَابٌ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ نَوْراً مَضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ (٤)

كما استعان الشعراء بالاستعارات الجميلة لإبراز معانيهم في حلة قشبية، وإيرادها في شكل تشناق إليه النفس، وتأنس به. ومن تلك الصور ما عبّر عنه حسّان بن ثابت ﷺ في يوم بدر، وذلك في وصف هزيمة حكيم بن حزام بن خويلد في ذلك اليوم، حيث قال:

نَجَّى حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرٍ رَكْضُهُ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ

لَمَّا رَأَى بَدْرًا تَسِيلُ جِلَاهَهَا (٥) بِكَتَائِبِ مَالُوسٍ أَوْ مِلْخَزْرَجِ (٦)

فقد جعل حسّان ﷺ في البيت الثاني جِلَاهَ بدر تسيل رجالاً من كثرة كتائب الأوس والخزرج على سبيل الاستعارة، وذلك بما تحمله من عمق في تصوير تلك

(١) ديوان حسّان بن ثابت ص ٢٢٥.

(٢) يذمرنا: يحضنا ويدفعنا.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ١٧٥.

(٤) المصدر السابق ص ١٧٤.

(٥) الجلاه: جمع جلهة، وجلهتا الوادي: جانباه. ومالوس أو ملخزرج: أي من الأوس ومن الخزرج على سبيل التسهيل.

(٦) ديوان حسّان بن ثابت ص ٢٩٩.

الكتائب، التي قدمت لنصرة الإسلام ودحر الشرك.



وفي تصوير المعارك تظهر جلياً براعة الشعراء في التقاط صورهم التي رسموا من خلالها مشاهد حيّة لما دار في أرض المعركة من مواقف وأحداث، ومن ذلك ما عبّر عنه كعب ابن مالك ؓ في موقعة بدر، عندما وصف قتلى المشركين الذين سقطوا في أرض المعركة، فقال:

وَعْتَبَهُ وَابْنَهُ خَرّاً جَمِيعاً وَشَيْبَةَ عَضَّةِ السَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَهَامَ بَنِي رَبِيعَةَ سَأَلُوها فِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فُلُوقُ (١)

حيث أشار كعب ؓ إلى مقتل سادة قريش، ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، اللذان قتلوا في بدر، فقد لقينا جزءاً عداوتهما ومحاربتهما للمسلمين، وفي التعبير عن مصرع شبيبة تصوير بديع، وذلك حين قال: ((وشبيبة عضّة السيّف الصّقيل)) فقد شبّه السيّف بحيّة تعضّ، وتنهش، وتلحق الضرر بمن تريد، حيث أوحى هذا التعبير بالأثر الذي أحدثه السيّف، وما كان له من وقع مؤلم في أجساد المشركين. وفي قوله: ((وهام بني ربيعة سائلوها)) إحالة للسؤال من العاقل إلى ما لا يعقل، إذ الخطاب يكون في حقيقته إلى أولئك المشركين، وليس إلى هاماتهم التي تطايرت في يوم بدر، وهنا يكون التعبير أبلغ وأقوى تأثيراً من جهة الاستدلال على ما حلّ بالمشركين، وما أصابهم في تلك الموقعة الحاسمة.

ويصف العباس بن مرداس السلمي ما كان من مشاركة بني سليم في فتح مكة بألف فارس جاءوا لنصرة النبي ﷺ وتحقيق الفتح المنتظر، يقول:

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاحُ مُسُومٌ (٢)

لقد كان العدد الذي شارك المسلمين من بني سليم كثيراً في نظر الشاعر، فهم (معلمون) ومتدربون على الحرب وخوض غمارها من جهة، وقد سألت بهم تلك الأرض السهلة المتسعة لكثرتهم ووفرة أعدادهم من جهة أخرى، وهنا يبرز دور التصوير الذي لجأ إليه العباس بن مرداس في قوله: (ألف تسيل به البطاح) إذ لا تسيل الأرض ماءً، بل تسيل رجالاً من بني سليم ملأوا بكتائبهم تلك البطاح، وهو ما يبرز أهمية تلك الحشود التي توافرت لنصرة المسلمين في

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٥٣.

(٢) السيرة النبوية ٢/٤٢٦.

فتح مكة.

وفي موقعة مؤتة، وأمام جيوش الروم الجرارة التي واجهت المسلمين في أرض المعركة، لم يجد عبد الله بن رواحة ؓ بدءاً من مخاطبة نفسه، وحثها على الصبر والعزيمة، والتضحية من أجل النصر أو الشهادة في سبيل الله، يقول:

يَا نَفْسُ إِلَّا تَقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
إِنْ تَسَلِمِي الْيَوْمَ فَلَنْ تَفُوتِي أَوْ تُبْتَلِي فَطَالَمَا عُوفِيَتْ (١)

فقد جعل الشاعر من نفسه إنساناً مقابلاً له يجيد لغة الحوار والخطاب، والجدال والإقناع، وذلك ليبت ما في وجدانه من مشاعر، ويعالج ما في داخله من إحجام، قاصداً في نهاية المطاف أن تتشجع نفسه، وتقدم على ذلك الأمر الذي جاءت من أجله، وهو الجهاد والتضحية في سبيل الله.

ويصور العباس بن مرداس ؓ بطولة قومه وشجاعتهم، وهم يتصدون للمشركين في موقعة حنين، فيقول:

إِذْ نَرَكَبُ الْمَوْتَ مُخْضِرًا بَطَائِنُهُ وَالخَيْلُ يَنْجَابُ عَنْهَا سَاطِعَ كَدْرٍ (٢)

فالشاعر هنا وفي سياق تجسيد شجاعة قومه وفروسياتهم يلجأ إلى التصوير، وذلك حين أحال الأمور المعنوية إلى أمور حسية، تشاهد، وتركب، ويتعامل معها، وهو ما يظهر فيقوله: (إذ نركب الموت مخضراً بطائنه) فقد أحال (الموت) وهو أمر معنوي إلى محسوس، وجسده بشكل ملموس، ليوحي من خلال ذلك بما امتاز به أولئك الفرسان من ثبات، وعزيمة، وإقدام في أرض المعركة.

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

(٢) السيرة النبوية ٢/٤٦٧.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أفصح العرب قاطبة سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فقد سارت هذه الدراسة في تتبع شعراء غزوات النبي ﷺ، وما قيل في تلك المعارك الخالدة من أشعار، وما حفلت به من روح الحماسة والعزيمة، والحرص على الدفاع عن الإسلام، ومنافحة خصومه، والتصدّي لهم في كلّ الأشعار التي نظموها من أجل الإساءة إلى الدّعوة الإسلاميّة.

وقد اشتملت هذه الدراسة على فصلين أساسين، أحدهما بعنوان: (الشعر في مواكبة الغزوات)، وفيه عرض البحث لغزوات النبي ﷺ، وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشعر من ردود على شعراء المشركين، حيث كانت غزوة (بدر) هي أولى الغزوات التي نالت اهتمام الشعراء، ثم تلتها غزوة (أحد)، واتسم فيها الشعر بالكثرة لما شهدته من أحداث جعلت شعراء المشركين يفخرون على المسلمين، ولذا فقد جاءت الردود من قبل شعراء المسلمين لتخرس ذلك الشعر، وتفصح عن عيوبه. وفي غزوة (الخندق) وقف الشعر يشير إلى حماسة المسلمين وروحهم المعنويّة في مواجهة تلك الأحزاب التي قدمت لحرب المسلمين، ولكنهم باعوا في نهاية أمرهم بسوء العاقبة والخسران. وفي غزوة (مؤتة) وقف الشعر يستنهض الهمم، ويقوّي العزائم، ويشير إلى ما ينشده المسلمون من النصر أو الشّهادة في سبيل الله. وأخيراً جاء (فتح مكة) فكان بشارة عظيمة للمسلمين وطريقاً لنشر الإسلام في تلك الأنحاء، حيث مجدّ الشعراء ذلك الفتح وأبانوا عن عظمتها، وأهمّيّته للمسلمين.

أمّا الفصل الثّاني فكان بعنوان: (القيم الفنيّة في شعر الغزوات) وفيه تناولت الدراسة ما اتّسم به ذلك الشعر من قيم فنيّة في جانب اللّغة الشعريّة،



والصورة الفنيّة، وبيان أثر القرآن الكريم في شعر الغزوات.
هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأستمدُّ منه العون والتأييد.
والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.



فهرس المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.
- ٣- الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين: د. نايف معروف، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ٤- الأدب في عصر النبوة والراشدين: د. صلاح الدين الهادي، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ.
- ٥- أساس البلاغة: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الرحيم محمود.
- ٦- الاستيعاب في أسماء الأصحاب: لابن عبد البر القرطبي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٨٢هـ.
- ٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين ابن الأثير، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٨- الإسلام والشعر: د. فايز ترحيني، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- ٩- الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر لابن حجر العسقلاني، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٠م، تحقيق: علي محمد البجاوي.
- ١٠- الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني، دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
- ١١- التأثير النفسي للإسلام في الشعر ودوره في عهد النبوة، د. عبد الرحيم محمود زلط، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١٢- تاريخ الأدب العربي: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.
- ١٣- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي -: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة ١٩٨٤م.

- ١٤- تأملات في سيرة الرسول ﷺ: د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
- ١٥- جماليات القصيدة المعاصرة: د. طه وادي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩٤ م.
- ١٦- دراسات في أدب الدعوة الإسلامية: د. محمود حسن زيني، مطبوعات مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٢ هـ.
- ١٧- ديوان حسّان بن ثابت، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣ م، تحقيق: د. سيد حنفي حسنين.
- ١٨- ديوان عبد الله بن رواحة - ودراسة في سيرته وشعره -: د. وليد قصاب، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
- ١٩- ديوان كعب بن مالك الأنصاري - دراسة وتحقيق -: د. سامي مكّي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م.
- ٢٠- ديوان النّابغة الجعدي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، بدون تاريخ، تحقيق: عبد العزيز رباح.
- ٢١- سير أعلام النبلاء: لشمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون.
- ٢٢- السيرة النبوية: لابن هشام، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ، تحقيق: مصطفى السقا وزميليه.
- ٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢٤- الشعر الإسلامي في صدر الإسلام: د. عبد الله الحامد، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ.
- ٢٥- شعر عبد الله بن الزبير: د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ.
- ٢٦- شعر العقيدة الإسلامية في عصر صدر الإسلام حتى سنة ٢٣ هجرية: د. أيهم القيسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ٢٧- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: د. النعمان القاضي، الدار القومية

للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٥هـ.

٢٨- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٢٩- صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٠- الصورة والبناء الشعري: د. محمد حسن عبد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

٣١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، تحقيق: د. محمد فرقان.

٣٢- في أدب الإسلام - عصر النبوة والراشدين وبنو أمية-: د. محمد عثمان علي، دار الأوزاعي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٣٣- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

٣٤- لسان العرب: لابن منظور المصري، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٣٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين ابن الأثير، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٧٣م، تعليق: د. أحمد الحوفي وزميله.

٣٦- مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٨م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٣٧- المسند: للإمام أحمد بن حنبل، دار المعارف، القاهرة ١٣٧٤هـ، شرح: أحمد محمود شاكر.

٣٨- المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٧م.

٣٩- معجم ألفاظ القرآن الكريم: عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطابع الأوفست ١٤٠٩هـ.

٤٠- معجم البلدان: لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٣٧٤هـ.

٤١- المعجم الوسيط، عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

٤٢- النابغة الجعدي - حياته وشعره -: د. خليل إبراهيم أبو ذياب، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٤٣- النظرة النبوية في نقد الشعر: وليد قصّاب، منشورات المكتبة الحديثة، العين ١٤٠٨هـ.

٤٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله.

